Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

0 f15

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات
عن
معروف الرصافي

حياته وشعره

ألقاها
مصطفى علي

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٣

١٩٥٤

معروف الرصافي

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات

عن

معروف الرصافي

حياته وشعره

ألقاها

مصطفى علي

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٣

١٩٥٤

893.7R18
DA

26723F

حياته

موقفى بينكم موقف المعرّف بأدب الشاعر لا موقف من يدرسه ويدرس آثاره دراسة وافية .

من أجل ذلكم سأقصر محاضراتى على هذا التعريف ، وأحصر أبحاثى فى وصف ما ترك الشاعر لأمته ، وخلف من نتاج فكره ، وفيض قريحته ، إلا أن هذا لا يمنعنى من أن ألقى نظرة خاطفة ، أو ألم إلمامة عجلى ببيئة الشاعر ، وتربيته وثقافته .

فى سنة ١٢٩١ رومية (حوالى سنة ١٨٧٥ للميلاد) استهل فى حىّ القراغول من بغداد وليد أنجبه أبوان ، إن أعوزهما ثراء المال فقد أغنتهما السجايا الغرّ ، والخصال الحميدة فسمّيا وليدهما « معروفاً »

كان أبوه (عبد الغنى) كثير الأسفار بحكم نظام الجندرمة (الدرك)[1] الذى كان منتسباً إليه . فنشأ الوليد فى حضن أمه الرءوم (فاطمة) ، وتحت رعاية أبيها (جاسم) قليل الصلة بأبيه ، لا يراه إلا حين يقضى واجبه ويعود إلى بغداد . لهذا لم تبق له فى ذهن ابنه صورة واضحة أكثر من أنه « كان متديناً ، كثير الصلاة ، وكثير قراءة القرآن ؛ وأنه كان حديد المزاج إذا غضب أخاف ، وإذا ضرب أوجع » .

أما أمه فقد كانت « مرجعه فى كل شىء حتى بعد مجاوزته العقد الأول من حياته ، لأنه كان لا يرى أباه إلا قليلاً . فهى التى كانت ترسله إلى الكتاب وهو صغير ، وهى التى كانت تجهز له كل ما يلزم لذلك » .

---

(١) كان رجال الأمن فى العهد العثمانى ينقسمون إلى نوعين : البوليس (الشرطة) وهم الذين يتولون الأمن داخل المدن ، والجندرمة (الدرك) وهم الذين يتولون الأمن خارج المدن (فى الأرياف) .

بهذا تحدث الرصافى عن أبويه .

كان لأمه إذن أثر عميق فى نفسه . وهو سرّ ما كان يكنّ لها من حب ، ومبعث ما كان يضمر لها من احترام ؛ وقد سمعناه لا يذكرها — إذ يذكرها — إلا بكل إكبار وإجلال . وهذا الأثر يبدو جلياً واضحاً حين تقرءون قصيدتيه اللتين ذكرها فيهما .

نظم الشاعر أولى قصيدتيه هاتين فى سفره الأول إلى الآستانه وكان قد أرق «ليلة فى دمشق» ، طرباً مسروراً من صوت رخيم جاء إليه « من غرف القصور »

سرّى الهموم عن الفؤا د بجوف حالكة الستور
والعود ينطق باللحـــو ن بلهجتى بمّ وزير
يرمى به الصـوت الرخيـــم على الدجى لمعات نور

فاستغرق فى نشوة سروره التى ملكت عليه مشاعره ، وتفانى فى لذته الروحية ثم أفاق متذكراً العراق فكانت ذكرى مؤلمة كدرت عليه صفو نشوته ، وحرمته لذة سروره . «فرجع عن ذلك السماع ، وغاب عن ذلك الشعور » ومثلت أمام عينيه أمه كئيبة حزينة على فراقه ، تذرى الدموع ، وتسكب العبرات :

وذكرت من تبكى هنـا ك علىّ بالدمع الغـــزير
تستوقف العجلان ثمّـــة بالرنين عن المسير
وتقول من مضض الفرا ق مقال ذى قلب كسير
ابنىّ سر ســـير الأما ن من الطوارق فى خفير

هذا ما تصوّره من حال أمه ، وهذا ما رنّ فى سمعه من قولها . فأجابها — على البعد — يواسيها ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يا أم لا تخشى فإنّ الله يا أمى مجـــيرى
ودعى البـكاء فإنّ قلـــبى من بـكائك فى سـعير

والقصيدة الثانية نظمها بعد فراق أمه فراقاً طال أمده ، وكان قد غادر الآستانة بعد هدنة الحرب العالمية متجهاً نحو العراق . فعسر عليه الوصول إليه فأقام فى الشام . وقد أودع قصيدته هذه حنينه إلى بغداد ، وشوقه إلى أهلها ، وذكراه لأمه .

لعمرك أقصانى الزمان المفرّق ... فهل أنا من بعد التشاؤم معرق ؟
خليلىَّ هل من بالرصافة عالم ... بأنى إلى من بالرصافة شيّق ؟
بلاد إذا ما هبّت الريح نحوها ... تمنّيت لو أنى بهـا أتعلّق
أبيت على شوق وقلبى موثق ... بهمّى ، ودمعى فوق خدَّىَّ مطلق
إذا ما تذكرت العجوز بكيتها ... بدمع به الأهداب تطفو وتغرق
وما شرق بالدمع يا أم وحده ... ولـكن بروحى عند ذكراك أشرق

ولما كانت الظروف التى اكتنفته حين نظم هذه القصيدة ظروف عسر وآلام وإخفاق ، فإنه أراد أن ينفس عما تحسُّ به نفسه من كرب ، وأن ينفى عنه عار الإخفاق فى الحياة حين قال لها :

فيا أم صبراً إنَّ لابنك همة ... إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبق
تضايق عنها الدهر مستعظماً لها ... وأهلوه عنها يا أميمة أضـيق
أكلّف منها الدهر ما لا يطيقه ... فليس بعارٍ أننى فيـه مخفق
لقد صغرت بغداد عن أن تضمّها ... وما وسعتها بعد بغداد جلّق

* * *

ولنعد الآن إلى الطفل الذى تركناه فى حضن أمه المنجبة تحدب عليه وترأمه .

عندما بلغ معروف الثالثة من عمره أو كاد ، أرسلته أمه إلى الـكتّاب اتباعاً للعادة التى تعودها أهل بغداد ، من إرسال أولادهم إلى الـكتاتيب لتعلم القرآن والخط وهذه الـكتاتيب لم تكن خاضعة لسيطرة المعارف ورقابتها . بل كان كل من يرى فى نفسه القدرة على تلقين الأطفال مبادىء القراءة والـكتابة سواء أرجلا كان أو امرأة ، يفتح له محلا يتولى فيه تدريس الأطفال سعياً وراء العيش . وظل معروف

يتنقل من كتّاب إلى آخر حتى وصل إلى أرقاها ببغداد . وهو كتّاب لا يقبل فيه إلا من ختم القرآن من التلاميذ . وكان صاحبه ، تشبّهاً بالمدارس الحديثة ، قد أعدّ مقاعد خشبية لتلاميذه يجلسون عليها ، وأخذ يدرّس فيه دروساً أرقى من سائر الكتاتيب . ولهذا كان يتمتع بامتياز خاص ، هو أن الذى ينهى دراسته فيه يخوّل له الدخول فى الصف الأول من المدرسة الرشدية العسكرية . فلبث فيه معروف سنتين دراسيتين والتحق بالمدرسة الرشدية العسكرية ، فجابه فى هذه المدرسة مشكلتين عصيتين لا قبل له باحتمالهما : إحداهما صعوبة الدراسة لأنها كانت باللغة التركية التى لا يعرف منها إلا ألفاظاً قليلة وتعبيرات بسيطة تلقنها من تلك الكتاتيب ، لم تعنه على فهم الدروس فهماً صحيحاً ، والثانية هذا التنافر الشديد بين طبعه الأدبى ، وروحه الشاعرة الحرة ، وبين صرامة الجندية وقسوتها ، وإطاعتها العمياء .

لقد استطاع بشق النفس أن يخضع جموحه لسلطان إرادته ، وأن يسيطر على شعوره ويتحكم فيهما سنتين ، اجتازهما باستظهار نصوص المواد الدراسية وحفظها حفظاً حرفياً دون فهم ولا إدراك ، ووقف فى الصف الثالث حين صعبت عليه الدروس وعسر حفظها فلم يستطع أن يجتازه .

إن إخفاقه هذا نفره من المدرسة العسكرية فلم يعد يقوى على إطاقة نظامها وتدريسها ، وأبى إلا أن يتركها . فتركها وانصرف إلى دراسة ما تهواه نفسه ويميل إليه طبعه ، ولم يجد ملجأً إلا المدارس الدينية فوجه وجهه شطرها ، وأخذ يدرس فيها العلوم الدينية والأدبية واللغوية . والعادة المتبعة فى هذه المدارس أن الطالب المنتسب إلى إحداها يستطيع أن يدرس فى أية مدرسة شاء منها . وقد يؤمّ مدارس متعددة يدرس فى كل منها علماً خاصاً على مدرس برع فيه . فانتسب معروف إلى مدرسة شيخه محمود شكرى الألوسى ، ولازمه أكثر من اثنتى عشرة سنة ، فدرس علوم اللغة العربية وآدابها ، ودرس على غيره علوماً أخرى كالفقه والمنطق . وهو وإن تلمذ لغير

شكرى من المدرسين ، فقد عرفه الملأ البغدادى بأنه تلميذه النجيب ، وأنبغ خريجى مدرسته . وكان معروف وفياً لشيخه فرثاه بقصيدتين إحداهما أنشدها فى اليوم الثالث من وفاته ، وأعدّ الثانية لينشدها فى الحفلة التأبينية التى أقيمت له فى الأربعين ، ولكن حيل بينه وبين إنشادها . وقد أشار فى الأولى إلى فضل أستاذه عليه فقال :

لأشكرنّك يا (شكرى) مدى عمرى ... وأبكينّك أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لقنتنى حكماً ... بها اكتسيت من الآداب سربالا
أو جرتنى من فنون العلم أدوية ... شفت من الجهل داءً كان قتّالا
فصحّ عقلى وقبلاً كنت مشتكياً ... من علّة الجهل أوجاعاً وأوجالا

وأشار فى الثانية إلى غرض فى نفسه ؛ إذ كان يومئذ يعانى أزمة نفسية عنيفة جداً . وما أكثر الأزمات النفسية العنيفة التى عاناها فى حياته ! قال :

لقد ترحلت فى يوم بنا انقلبت ... حوادث الدهر فيه شرّ منقلب
حتى تقدم ما فى القوم من ذنب ... فصار رأساً وصار الرأس فى الذنب
وبات يحسو الطلا بالكأس من ذهب ... من كان يشرب رنق الماء بالعلب
فاذهب نجوت رعاك الله من زمن ... من عاش فيه دعا بالويل والحرب

واظب معروف على الدراسة بهمة لا تفتر ولا تملّ ، وعزم لا يلين ولا يكل . ينجده ذكاء وقاد ، وتعززه فطنة نيّرة ؛ فأظهر تفوّقاً ونبوغاً منقطعى النظير . وكان أن وصل إلى مرحلة الشباب ، واختلط بالناس وزاد عارفوه ، فشعر بأن حاجاته التى يعانى أسرها وقيودها آخذة فى الازدياد حتى قال فيها :

إنى لفى أسر حاجاتى ومن عجب ... تعوّدى ما به تزداد حاجاتى

فاختلاطه هذا يضطره إلى أن يجارى خلطاءه ، فيظهر بينهم بالمظهر اللائق به ، وبمكانته الأدبية والعلمية التى صار يحتلّها . وبحكم بيئته اعتاد عادات أخرى كالتدخين ، وكارتياد المقاهى ساعات الفراغ . وهذه كلها تستوجب الصرف ،

وتتطلب البذل . ومعروف فقير الحال لا تسعفه ذات يده . وكم من مرة صارع هوى نفسه فتغلب عليه ، وأخضع رغبته وشهوته لشهوة حاله المالية :

وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه حذار وقوعى فى خبيث المطاعم
وأترك ما قد تشتهى النفس نيله لما تشتهيه قلة فى دراهمى

رأى معروف هذا كله ومارسه ، فشعر بالضرورة إلى البحث عن عمل يدر عليه ما يقيم به أوده ، ويجارى خلّانه وأصحابه ، فعيّن معلماً بمدرسة أولية فى إحدى القرى قضى فيها سنة دراسية ونقل معلماً إلى مدرسة ابتدائية ببغداد ، ثم عين مدرساً للغة العربية فى المدرسة الإعدادية . وقد أعلن الدستور العثمانى وهو فى وظيفته هذه سنة ١٩٠٨ .

وبعد إعلان الدستور دعاه صاحب جريدة « إقدام » التركية ليتولّى الكتابة فى الجريدة التى عزم على إصدارها باللغة العربية ولما سافر إلى الآستانة ، رآه قد أثنى عن عزمه فعاد إلى بغداد بعد أن أخذ منه نفقات ذهابه وإيابه . ولم يكد يمضى عليه شهران فيها ، حتى دعى إلى الآستانة ليدرّس اللغة العربية فى المدرسة الملكية الشاهانية ، وليقوم بالكتابة فى مجلة « الإرشاد » فسافر إليها . وقد انتخب نائباً عن لواء « المنتفق » وهو هناك . ولما أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام فى الحرب العالمية الأولى ، كان ببغداد زائراً فرجع إلى الآستانة كما رجع غيره من النواب . وهناك عهد إليه بتدريس الخطابة فى مدرسة الواعظين ، التى أسستها وزارة الأوقاف فيما أسست من مدارس ومعاهد ، لإصلاح شؤون رجال الدين . ولبث فى الآستانة حتى إذا أعلنت الهدنة عزم على العودة إلى العراق ، وكان السفر يومئذ لا يخلو من مخاطرة ، فاضطر إلى الإقامة فى دمشق نحو سبعة أشهر ، ومنها توجّه إلى القدس ليتولى تدريس آداب اللغة العربية بدار المعلمين .

وفى سنة ١٩٢١ طلبته حكومة العراق فلبّى الطلب ، وشغل بوزارة المعارف وظيفة « نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف » فقضى فيها نحو سنة ونصف وسافر من العراق تحقيقاً لقوله :

سأنصب للهواجر حرّ وجه يعود إلى الشروق به الغروب
وأضرب فى البلاد بغير مكث أجوب من المهامة ما أجوب
إلى أن أستظلّ بظلّ قوم حياة الحرّ عندهم تطيب

وكان الرصافى قد تزوج فى الاستانة ، وأبقى زوجه هناك عند ما أراد أن يعود إلى العراق بعد إعلان الهدنة . ولما أزمع السفر من العراق تذرع برغبته فى زيارتها ، ليتمكن من نيل ماله من إجازة ، ويتسلف رواتبه عنها فيستعين بها على تذليل عقبات السفر ، ولكنه لم يوفق لما أراد . وقد أشار إلى تلك الذريعة بقوله :

قد عاقنى الإملاق عن سفرى إلى من طال معتلجاً إليه حنينى
وأنا المشوق ولست ممن شاقهم بقر العذيب ولا مها يبرين
لكنّ قلبى لا يزال يشوقه ظبى أقام بدار قسطنطين

وأشار فى قصيدة أخرى إلى زوجته ساعة التوديع ، حين اضطر فى سفره هذا إلى مغادرة الآستانة قافلا إلى العراق :

تقول ابنة الأقوام وهى تلومنى وأدمعها رقراقة فى المحاجر
إلى كم تجدّ البين عنى مسافراً أما تستلذّ العيش غير مسافر
وأسكتها عنى نشيج فلم تزل تردّده منها بأقصى الحناجر
إلى أن تفانى الصبر فافتر مدمعى كمدمعها عن لؤلؤ متناثر
ولا غرو أن أبكى أسىً من بكائها فأعظم ما يشجى بكاء الحرائر
وقلت لها : إنى أمرؤ لى لبانة منوط مداها بالنجوم الزواهر
تعوّدت ألاّ أستقيم إلى المنى وألّا أرى إلّا بهيئة ثائر
وأن أمضى الهمّ الذى هو مقلقى بطىّ الفيافى أو بخوض الدياجر
أما ترينّ الوجه منى شاحباً لكثرة ماعرّضته للهواجر

و بعد نحو سبعة أشهر من مغادرته بلاده .

آب المســـافر للديا ر على اضطرار فى إيابه
لو كان يجنـح للإيا ب لما تعجّل فى ذهابه

و بقى ببغداد بغير عمل حكومى فأصدر خلال هذه الفترة جريدة سياسية باسم « الأمل » ، فلم تسمح له الظروف والأحوال أن يصدر منها أكثر من ثمانية وستين عدداً . وفى أواخر سنة ١٩٢٤ ، عين بوزارة المعارف مفتشاً للغة العربية . ثم نقل إلى تدريس اللغة العربية وآدابها بدار المعلمين العالية . وفى سنة ١٩٢٨ ، استقال ولم يعد إلى التوظف ، بل ناب عن الأمة فى المجلس النيابى خمس مرات فتقلب على كرسيّ النيابة نحو ثمانية أعوام ، عاش بعدها بعيداً عن وظائف الدولة ومجلس الأمة نحو سبعة أعوام .

وكان قد هجر بغداد سنة ١٩٣٣ ، حين رأى راتبه التقاعدى ، لا يقيم أوده ولا ينجده فى عيشة . واختار له « الفلوجة » معتزلا ، ثم عاد منها سنة ١٩٤١ وسكن الأعظمية . وفيها توفى صباح الجمعة السادس عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٥ .

مؤلفاته

الصفات الشائعة فى مؤلفات الرصافى هى الحرية والإخلاص فيما يكتب ، وصدق اللهجة ، والصراحة ، والوضوح فى المقاصد ، والبعد كل البعد عن النفع الشخصى من وراء ما يكتب . فهو صادق إذن حين قال فى وصيته : « كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية ، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذى عشت فيه ، والقوم الذين أنا منهم ، ونشأت بينهم . فلذا لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة » . وإذا ما كتب فما كان يتنور فيما يكتب إلا وجه الحقيقة غير مقيم للتاريخ وزنا . وقد أشار إلى نزعته هذه فى مقدمة كتابه « الشخصيه المحمدية » قائلا : « . . . فأنا اليوم أبرأ إلى الحقيقة من التاريخ ، وأنا اليوم أكتب ما أكتب للحقيقة وحدها » وتحدّث عنها فى كتابه « على باب سجن أبى العلاء » فقال : « . . . لأنى أحببت أن أكون فى الرأى حراً ولا أكون مقلّدا إلا فيما لا ينفاله إدراكى ، ولا تبلغه معرفتى . خصوصاً إذا كنت لم أكتب ما كتبت إلا تحرياً للحقيقة » وصدع بها فى كتابه « رسائل التعليقات » فى الرد على زعم المستشرق ، أن النبى لم يدعه إلى حرب خيبر سوى الطمع فى اغتنام الأموال كما سيمرّ بكم من وصف هذا الكتاب .

أما شعره فحسبى أن أروى منه قوله :

أحبّ صراحتى قولاً وفعلاً وأكره أن أميل إلى الرياء
فما خادعت من أحد بأمرٍ ولا أضمرت حسوًا فى ارتغاء
ولست من الذين يرون خيرًا بإبقاء الحقيقة فى الخفاء

وقوله :

أبى الحق إلاّ أن أقوم لأجله على الدهر فى كل المواطن ثائرا
وأن أتمادى فى جـدال خصومه وأقرع منهم بالبيان المـكابرا
وإنى لأهوى الحق كالطيب ساطعاً وكالريح هباباً وكالشمس ظاهراً
ستبقى لنفسى فى هواه سريرة إذا الدهر أبلى من بنيه السرائرا
وتـكره نفسى أن أكون مخادعاً لأدرك نفعاً أو لأدفع ضائرا
وما العجز إلا أن أكون مكاتماً إذا ما تقاضتنى العلا أن أجاهرا
وما أنا ممن يبهم القول لاحنـاً فيضمر فيـه للجليس الضمائرا

***

عرفت للرصافى سبعة عشر مؤلفا منها ما طبع ، ومنها مالا يزال مخطوطاً .

فالمطبوع :

١ — الرؤيا :

وهى رواية للأديب التركى نامق كمال . نقلها إلى اللغة العربية بعد إعلان الدستور العثمانى . ومما جاء فى نداء الحرية الذى وجهته إلى أبناء الأمة العثمانية توقظهم به من نوم الذل والهوان وتستنهضهم إلى المجد والسؤدد قولها : « ما أفظع هذا الذل فيكم ! وما أشنع هذا الجبن منـكم ؟ ماذا الذى منه تخافون ؟ أمن الموت ؟ فانظروا متى كان الخوف من دواعى الحياة وأسـبابها ! أم من الشقاء والتعب ؟ فتأملوا من ذا الذى شقى فى الدنيا ، بأن حمل أثقالا هى أكثر ثقلا وأعظم مشقة ، من قيود الإساءة التى أنتم بها مقيدون ، ولأثقالها حاملون » .

« أفأنتم القوم الذين لا زلت أسمع عنهم أنهم أعلى الأقوام همة ، وأكثرهم بالفضائل اتصافاً ، و بالبسالة والشجاعة اشتهاراً ، و بالحميه والمروءة اتساماً ، وأعظمهم للمصائب احتقاراً وللمشكلات حلاًّ واكتشافاً ، وللصعاب استسهالاً ، وعلى المهالك إقداماً ؟ ما أكذب هذه الشهرة ، وما أخلى تلك الصفات عن المعنى ! »

٢ — الأناشيد المدرسية :

رسالة لم أقف عليها ، بل علمت أنها طبعت بالقدس . تحتوى على أناشيد نظمها الرصافى وضبطت لحونها بالنوتة .

٣ — تمائم التعليم والتربية :

رسالة شعرية نظمها الشاعر لتكون فى متناول التلاميذ يطالعونها و يستظهرونها .

وهذان الكتابان يمثلان اتجاه الرصافى إلى أدب الأطفال ، ونزعته الشديدة إلى تنشئتهم نشأة كريمة فى الحياة ، وله أناشيد كثيرة منها ما تضمنه كتابه « الأناشيد المدرسية » ومنها ما نظمه بعده ، وألقاه على أفواه التلاميذ ينشدونه فيلهب فيهم الشعور الوطنى والقومى ، ويحضهم على الاتصاف بالفضائل ، ويحثهم على بذل السعى فى طلب العلم . وقد أحببت أن أروى لكم نخبة صالحة من هذين الكتابين . فمن أناشيده :

(ا) أوطاننا وهى الغوالى أرواحنا لهـــا ثمن
وإنما أحيـــا المعالى من مات فى حب الوطن

بكل سـيف منتضى أوطاننـا نحمى حماها
ما مات منـا من قضى فى أرضها تحت سماها

أوطاننـا وهى الأمانى عن حبهـا لا ننثنى
طابت لنا منها المغانى بغـــيرها لا نعتنى

فى كل سهل وجبـل ننشق أنفاس هواها
لم نرض بالدنيـا بدل عن سهلها أو عن رباها

(ب) نفسى إلى العليا تطوى مـداها
ما أنحس المحيـا لولا منـــاها

نحن سجايانا حب التعالى
طابت مغانا دون المعالى

نحن بنو الأوطان نحمى حماها
من جدنا عدنان قد ورثناها

فى أرضنا نحيا تحت سماها
لم نرض فى الدنيا شيئاً سواها

نحن بنو من هم بالعلم سادوا
كل الورى منهم قد استفادوا

نحو بنو العرب بيض الفعال
بالسيف والكتب نالوا المعالى

فلنطلب العلم بلا توان
ولنتق الظلم بالهند وانى

(ج) وهو نشيده الوطنى المشهور :

نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن ما لنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياء الوطن هل سوى الأرواح للأوطان فى الدنيا ثمن

يا ضلال الالى لم يكونوا الفدا
إن نمت نحن فليحى أوطاننا

نحن لم نخلق لحمل الجور أو لبس الهوان بل خلقنا للعلا والسبق فى يوم الرهان
هذه أوطاننا فاقت فراديس الجنان كيف لا نفدى لها الأرواح فى الحرب العوان

يا ضلال الالى . . . الخ

أنت يا أوطان من أرض حوتنا أو سما ارفعى فى أوج علياك اللواء المعلما
وارتقى نحو المعالى واجعلينا سلما نحن من جرّاك نجرى فى الوغى سيل الدما

يا ضلال الالى . . . الخ

ومن رسالة « تمائم التعليم والتربية » :

(ا) أغرودة العندليب :

سمعت شعراً للعندليب تلاه فوق الغصن الرطيب
إذ قال نفسى نفس رفيعه لم تهو إلا حسن الطبيعه
عشقت منها حسن الربيع أحسن بذاك الحسن البديع
فالعيش عندى فوق الغصون لا فى قصور ولا حصون
أطير فيها لفرط وجدى من غصن ورد لغصن ورد
وفى فروع الأغصان بيتى فالظل فوق والزهر تحتى
فسل نسيم الأسحار عنى كم هز عطف الأغصان لحنى
وسل بشدوى زهر الرياض إنى بحكم الأزهار راض
فكم زهور لما أفوه أصغت وقالت لافض فوه
يا قوم إنى خلقت حرا لم أرض إلا الفضا مقرا
فإن أردتم أن تؤنسونى ففى المبانى لا تحبسونى
وإن أردتم أن تنطقونى فأطلقونى ، فأطلقونى

(ب) آثار العرب الخالدة — قصر الحمراء .

قف على الحمراء واندب مضر الحمراء فيه
واسأل البنيان ينبئك بأنباء ذويه
ويحدثك حديث المجد والعيش الرفيه
بكلام محزن اللهجة يبكى من يعيه
فيقول القلب آها وتقول الأذن إيه
صاح لو كان لذا الدهر حياء يقتنيه
ما رمى العرب أباة الضيم بالخطب الكريه
لا ولا جر بغرناطة أذيال سنيه

حيث هذا القصر أمسى خاليـــاً من مبتنيـــه
فازدر الدهر وســـفه رأى من لا يزدريه
وإذا كفت حليما فابك من دهر ســـفيه

(ج) فى ملعب كرة القدم :

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم كرة تراض بلعبها الأجسام
وقفوا لها متشمرين فألقيت فتعاورتهـــا منهم الأقدام
يتراكضون وراءها فى ساحة للسوق معترك بها وصـــدام
رفساً بأرجلهم تساق وضربها بالكف عنـد اللاعبين حرام
ولقد تحلق فى الهواء وإن هوت شرعوا الرءوس فناطحتها الهام
وتخالها حيناً قذيفـــة مدفع فتمر صائتـــة لها إرزام
ولربما سـقطت فقام حيالها للضرب عبـل الساعدين همام
فتخالها وتخاله كفريســـة سقطت فزمجر دونها الضرغام
لا تستقر بحالة فكأنهـــا أمل به تتقـاذف الأوهام
تنحو الشمال بضربة فيردها نحو الجنوب ملاعب لطـام
وتمر واثبـــة على وجه الثرى مراً كما تتـواثب الآرام
وتدور بين اللاعبين فمحجم عنها ، وآخر ضـارب مقدام
وكأنها والقوم يحتوشـونها قلب عليه تهـاجم الآلام
راضوا بها الأبدان بعد طلابهم علماً تراض بدرسـه الأفهام
أبنـاء مدرســة أولاء وكلهم يفع مرير المرفقـــين غلام

***

لابد من هزل النفوس فجدها تعب وبعض مزاحها استجمام
فإذا شغلت العقل فاله سويعة فاللهو من تعب العقول جمام

والفكر منهكة فباستمراره تهن العقول وتهزل الأجسام
ورياضة الأبدان ملعبة بها حفظت نشاط جسومها الأقوام
إن الجسوم إذا تكون نشيطة تقوى بفضل نشاطها الأحلام
هذى ملاعبهم فجسمك رض بها واسلك مسالكهم عداك الذام

---

٤ — دفع السرهجنة فى ارتضاخ اللكنة :

« جمع فى هذا الكتاب كلمات عربية الأصل استعملت فى اللغة العثمانية » وقصد من جمعها أن « تقى أبناء العرب من العجمة ، وتحميهم من اللكنة » وقسم تلك الكلمات إلى خمسة أقسام : الأول مالم يغير الأتراك لفظه ولا معناه ، والثانى ماغيروا لفظه ومعناه ، والثالث ماغيروا لفظه دون معناه ، والرابع ماغيروا معناه دون لفظه ، والخامس ماوضعوه من عند أنفسهم على قواعد العربية ، وليس هو من كلام العرب. والقسمان الرابع والخامس هما غرض المؤلف من وضع كتابه، إذ بهما يقع الإلتباس، ومنهما تنشأ اللكنة لأنها ألفاظ عربية المبنى تركية المعنى . وإليكم مثلا لكل منهما .

(ا) تحرير :

« يستعملونه بمعنى الكتابة والإنشاء ، ويستعملونه بمعنى الإحصاء بالتسجيل كتحرير النفوس ، وتحرير الأملاك .

نعم ، يقال فى العربية حرّر الكتاب وغيره ، أى قومه وحسنه بإقامة حروفه وإصلاح سقطه . وهذا غير المعنى الذى يقصدونه من كلمة تحرير إذ هم يقصدون الكتابة والإنشاء . وقد يستعمله اليوم كتاب العربية استعمالهم فيقولون : محرر بمعنى كاتب أو منشىء »

(ب) ابتصار :

« وضعوها عن عند أنفسهم واستعملوها بمعنى التبصر وليست من كلام العرب » وتكلم عما غيروا لفظه دون معناه ، وماغيروا لفظه ومعناه عرضاً ، وإن كانا خارجين عن غرض الكتاب .

٥ — نصح الطيب فى الخطابة والخطيب :

مر بنا أن وزارة الأوقاف عهدت إلى الرصافى بتدريس الخطابة العربية فى مدرسة الواعظين بالآستانة ، فلما تولى التدريس التمس المصادر التى يستمد منها دروسه ، والمراجع التى يعوّل عليها فى هذا الفن ، فعزت عليه ولم يجد أمامه غير كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ . وكان سعير الحرب العالمية الأولى متقداً ، فتعذر عليه أن يستحضر ما يريد من تلكم المصادر و راجع . فاعتمد على كتاب الجاحظ هذا ، واستخرج منه الدروس التى ألقاها على الطلاب ثم جمعها فى كتاب ، هو هذا الكتاب الذى أحدثكم عنه . ولكى أقفكم على موضوعه وأطلعكم على رأى المؤلف فى « البيان والتبيين » ، أنقل لكم قوله فى فاتحة الكتاب قال :

« وبعد فقد قرأت كتاب ، (البيان والتبيين) للجاحظ . فوجدت فيه من فنون البيان مايفتق اللسان ، ويخلب الجنان . إلا أنه احتوى على الغث والسمين ، وجاء بالبخس والثمين . . . ولقد خيل لى أن الجاحظ عند تأليف هذا الكتاب كان يأخذ القلم فيكتب ماخطر له وعنّ ، من غير مراعاة نظير يطلب ذكر نظيره ، وقرين يدعو إلى اثبات قرينه ، حتى إذا كتب ماشاء الله أن يكتب ، ترك الكتابة ثم عاد إليها فى وقت آخر ، فأخذ يكتب ما خطر بباله أيضاً ، دون مراعاة ما كتبه قبلا .

. . . . وليس هذا بعجيب فإن عصر الجاحظ حديث عهد بالتأليف إذ كان المؤلفون — ولا سيما كتاب الأدب — لا يعتمدون فيما يكتبونه إلا على ما رووه وسمعوه ، واستظهروه وحفظوه » .

ثم أراد أن ينفى عنه ما عسى أن يتبادر إلى ذهن القارىء من تهمة الاستهانة بالجاحظ فقال : « ولا يظنن القارىء أنى أريد بكلامى هذا أن أبخس الجاحظ كتابه ، أو أنتقصه حقه وفضله . فإن الجاحظ إمام من أئمة الأدب ، وجهبذ من جهابذة العرب فما أنا من نظرائه ولا من أكفائه » . ثم قال عن الكتاب :

« فهو على علاّته درة يتيمة ، وطرفة كريمة . وليست رسالتى إلا مستخلصة منه . وما لى فيها سوى التمحيص والترتيب ؛ فكأنى عمدت إلى درر متفرقة فنفيت عنها الرغام ، وجمعتها فى نظام » .

٦ — دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية :

مرّ بنا أن الرصافى درّس آداب اللغة العربية بدار المعلمين العالية . وفى سنة ١٩٢٨ نشر دروسه التى ألقاها على طلابه ملحقة بمجلة « التربية والتعليم » التى كان يصدرها الأستاذ الكبير مدير معهدكم[1] ؛ ولما تم نشرها فصلت كراساتها من أجزاء المجلة ، وضم بعضها إلى بعض ، فتألف منها هذا الكتاب . وفيه عرض لمباحث شتى فى الأدب وتاريخه وأفرد للأديب بحثاً فيه . وبعد ما عرفه بالتعريف الذى رآه يحدّده تحديداً جامعاً مانعاً قال :

« نطلق اسم الأديب على كل من نراه فائقاً فى قواه العقلية ، وفى الوقت نفسه نراه بارعاً فى القدرة البيانية . فهو يستطيع بقدرته على البيان أن ينقل إلى نفس مخاطبه كل ما أوحته إليه قواه العقلية من الفكر والخيال ، وما أحدثته فى نفسه من الهيجان والانفعال » .

وفى بحثه عن الشعر — مبدئه ونشأته ؛ يصل إلى نتيجة : « هى أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم ، وأن الوزن متولد من السجع ، وأن أول مولود من أوزان الشعر هو الرجز ، وأن هذا الولد البكر ، أبوه المصادفة وأمه الغناء ودايته الرقص . وأما القافية فهى واسطة التعارف بين أبيه وأمه » .

٧ — رسائل التعليقات :

كتاب يضم ثلاث رسائل كتبها فى التعليق على كتاب « التصوف الإسلامى » وكتاب « النثر الفنى » وهما للدكتور زكى مبارك . وعلى كتاب « التأريخ الإسلامى »

(١) هو الأستاذ ساطع الحصرى .

للمستشرق الطليانى لئونا كايتانى . ومن عادة الرصافى إذا قرأ كتاباً أن يعلّق فى هوامشه « مايسنح له من فكر وملاحظة » . وبعد أن قرأ هذه الكتب الثلاثة وعلق عليها ، جمع تلكم التعليقات وأثبتها فى هذا الكتاب . وقد سلك فى تعليقاته طريقة رجال العلم وروّاد الحقائق فكان يحترم من يحاوره ، ويترفق فى مجادلته ، ويلقى رأيه بكل إكبار ، ويخاطبه بكل تواضع ، وإذا عرض رأيه عرضه بكل هوادة ولين ، فضرب لنا أمثلة سامية فى أدب الجدل والمناقشة .

يقول عن كتاب « التصوف الإسلامى » : « لمؤلفه الدكتور زكى مبارك » ويقول : « . . . فوجدته جديراً بالمطالعة لأنه أول كتاب من نوعه يناقش مذهب التصوف الإسلامى مناقشة علمية تأريخية » .

ولما تكلم عن وحدة الوجود التى يراها أساس مذهب التصوف قال : « أما أن هذه الفكرة حصلت بالتفكير أو بالأخذ والتلقين ، فشىء يحتاج الكلام عنه إلى بحث طويل وتفكير مديد . فلذا أتركه للشبان الباحثين ، والأقوياء القدراء من المفكرين كالدكتور زكى مبارك وأمثاله الأكرمين .

وقال فى كتاب التأريخ الإسلامى : « . . . وهو — والحق يقال — كتاب جليل يستمد (أى المؤلف) مباحثه من مصادر كثيرة قديمة وحديثة ، لا يتيسر الحصول عليها لكل أحد . ولا أكتم أنى من المعجبين المعترفين له بالفضل وسعة الاطلاع وبراعة التمحيص والتحقيق فى المسائل العلمية ، ولا أؤاخذه إلا بتسرعه أحياناً فى الحكم ، وأخذه بالظن فى مسائل يجب التحقيق وتدقيق النظر فيها قبل البت بالحكم عليها . ويؤسفنى أننى أشم منه فى بعض أقواله رائحة الانحياز إلى جانب دون آخر مما لا يناسب مواقف أهل العلم تجاه الحقائق العلمية » .

هذه هى الطريقة التى اتبعها فى تعليقاته ، وبهذه الروح جادل . فلننظر إلى أمثلة منها :

(ا) قال فى تعليقاته على كتاب «التصوف الإسلامى» عن البعث والإيمان به :

« أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم فلم أقف على كلام للصوفية فى تخريجه على مذهبهم وتوجيهه . والذى أراه أنه معتقد صرف لا يقوم إلا بالإيمان وأن ليس للعقل فيه مجال . ولا يخفى أن الإيمان بالغيب يتسع لأكبر منه وأبعد . ولم يقم لنا عليه من الحجج الدينية ، حجة أعظم من قياسه على النشأة الأولى . ولا يخفى أنه قياس مع الفارق بعيد جداً . لأن النشأة الأولى إنما وقعت على وجه من أسباب النشوء موافق لسنة الله فى خلقه .

نعم ؛ نحن فى عالم الكون والفساد ، ومن الممكن عقلا أن تعود الأشياء الفاسدة أو الهالكة فى هذا العالم ، إلى كونها الأول ولكن بأمثالها لا بأعيانها ؛ فإن عودتها بأعيانها مستحيل . ومن العبث إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم إلا بالإيمان فى جميع الأديان . وليس الدين إلا إيماناً بالغيب كما جاء فى القرآن (يؤمنون بالغيب) .

و إن كان البعث مما لا تدركه العقول فإن الإيمان به معقول ومقبول . وذلك لأن الغاية المقصودة من الإيمان بالغيب هو اعتقاد المؤمن بيوم الدين الذى هو يوم الحساب والجزاء . ذلك اليوم الذى يجازى فيه المحسن و يعاقب المسىء » .

(ب) وقال فى تعليقاته على كتاب النثر الفنى حول إيمان المسيو مرسيه بوجود الخطب فى الجاهلية و إنكاره النثر الفنى :

« قال الدكتور زكى مبارك : (والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب فى العصر الجاهلى ، وينكر إنكاراً مطلقاً أن يكون هناك نثر فنى كالذى يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة ، أو دفع شبهة ، أو أيضاح مشكلة فنقول : يفهم من كلام هذا الفرنسى أن الخطب على إطلاقها ليست من النثر الفنى ؛ لأنه يؤمن بوجودها فى الجاهلية و ينكر النثر الفنى ، مع أن علماء العربية كلهم قسموا النثر إلى قسمين مرسل ومسجوع ، فالخطبة سواء كانت مرسلة أو مسجوعة لابد أن تكون من النثر و إلا فمن أى قسم من أقسام الكلام يعدها هذا الفرنسى المحترم .

والظاهر من كلام المسيو أن الكلام المنثور إذا ألقاه قائله إلقاء على جمع حاشد من الناس كان خطبة . و إذا قاله لإذاعة فكرة أو دفع شبهة أو إيضاح مشكلة كان نثراً فنياً ، و إلا فبماذا يميز الخطبة من النثر الفنى إذا كانت الخطبة عنده ليست من النثر الفنى ؟ » .

وقال عن رأى الدكتور زكى مبارك بأن القرآن نثر فنى جاهلى :

« إن أسلوب القرآن هو أسلوب خاص مبتكر غير مسبوق فى العربية بل هو أسلوب ما عرفته العرب ولا ألفته فى كلامها قبل القرآن . ونحن إذا استثنينا بعض ما جاء فى السور المكية — لا سيما السور القصار — من الآيات التى تمثل لنا السجع بعض التمثيل ، جزمنا بأن سائر الآيات القرآنية لا تعد سجعاً ولا ترسلا ، أو هى سجع خارج عن حدود السجع المعروفة ، أو هى ترسل خارج عن حدود الترسل أو هى بين بين .

إن هذا الترديد ليس ناشئاً من تردّدى فى الحكم ، بل هو ناشىء من اختلاف فواصل الآيات القرآنية وتنوعها . فإن كل شق من شقوق الترديد يصدق على طائفة من الآيات القرآنية . إن أحسن ما نسمى به أسلوب القرآن — على ما أرى — هو ما أشار إليه القرآن نفسه فى فى عدة آيات . ففى سورة فصلت (كتاب فصلت آياته) وفى سورة الأنعام (قد فصلنا الآيات) وفى سورة الأعراف (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) وفى سورة هود (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) فبالنظر إلى هذه الآيات يجب أن يسمى أسلوب القرآن بالأسلوب المفصل وأن نقول بأنه نثر مفصل لا مسجوع ولا مرسل » .

ثم رجع إلى ما يمثل النثر الجاهلى فقال :

« إذا صح فى نظر الدكتور زكى مبارك أن يمثل لنا القرآن النثر الجاهلى ، لزم من ذلك أن تمثله لنا الأحاديث النبوية أيضاً ، بل هى أولى بتمثيله من القرآن لأنها بصوغها وتعابيرها لم تخرج عن أساليب الكلام المألوفة عند عرب الجاهلية ، بخلاف

القرآن ، فإن أسلوبه الخاص المبتكر لم يكن مألوفاً لهم ولا معروفاً عندهم . . . . وللأحاديث النبوية نظائر كثيرة من كلام العرب ككلام الوفود التى وفدت على النبى فى المدينة . . . ولا ريب أن فى أحاديث هؤلاء الوفود ما لا يستهان به فى الاستدلال على النثر الجاهلى . أما إذا أبى المنكرون إلا أن نأتيهم بنثر مسطور فى الصحف ، فليس سوى أن نأتيهم بالكتب التى كتبها رسول الله إلى الملوك ، وما كتبه لغيرهم كالكتاب الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ، والذى وادع فيه اليهود وعاهدهم » .

(ج) وقال فى تعليقاته على كتاب « التأريخ الإسلامى » حول إدعاء المؤلف أن حرب خيبر كانت منبعثة من مطامع مادية :

« إن الذى يرمى إليه المؤلف فى كلامه هذا ، هو أن محمداً لم يكن لديه سبب أو باعث إلى حرب خيبر سوى الطمع فى اغتنام أموالها . أما نحن فنقول : « إن محمداً له غاية عامة يعرفها المؤلف نفسه حيث تكلم فى فصوله السابقة عما لقيه محمد من اليهود ، وعما بذل من الجهود الكبيرة فى سبيل استمالتهم إليه فلم يفلح . وتكلم المؤلف نفسه أيضاً عن عداوة اليهود لمحمد وذكر كيف وقفوا له عثرة فى طريقه حتى يئس منهم . وعلم أنه يستحيل عليه الوصول إلى غايته المطلوبة ما دام اليهود واقفين بالمرصاد ، وما داموا يناوئونه أشد العداء ، ويحرّضون قريشاً وغيرهم من القبائل على حربه وقتاله . حتى أن محمداً لما زحف بجيشه إلى خيبر كان أهلها اليهود حلفاء لغطفان ضد محمد .

كل هذا يعلمه المؤلف وقد تكلم عنه وذكره فى كتابه ولكنه رغم ذلك يقول : ليس هناك سبب يدعو محمداً إلى حرب خيبر سوى الطمع فى اغتنام أموالهم . ويقول : إن هذه الحرب كانت اعتداءاً محضاً منه عليهم . فهل هذا كلام مؤرخ أم كلام متحيز يقلب الحقائق التأريخية ، كما يشتهيه هوى فى نفسه وبغض فى قلبه . أنا — والله شاهد عليم — لا أتعصب لمحمد ولا عليه ، ولا لغيره من البشر ولا عليه ،

ولكنى أقول : يجوز أن يتهم محمد من أعدائه بأنواع المفتريات إلا الطمع فى أموال الدنيا فإنه كان بعيداً عن ذلك جداً جداً » .

وقال : « ومما يستأنس به رداً لقول المؤلف ، أن رسول الله لما استنفر من حوله إلى حرب خيبر ، جاء المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال لهم : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا . ثم أمر منادياً ينادى بذلك فنادى به — كما فى السيرة الحلبية — فهذا يبطل ما يدعيه المؤلف .

ومهما يكن فنحن لا ننكر أن الحروب التى كانت تقع فى حياة محمد كانت حروباً اغتنامية ولكن نقول : إن الغنائم لم تكن الغاية المطلوبة منها و إنما كانت عرضاً من أعراضها ، كما كانت لضعاف الإيمان من المرغبات فى الجهاد » .

٨ — على باب سجنه أبى العلاء :

هو جزء من كتاب « رسائل التعليقات » كتبه بعد أن قرأ كتاب الدكتور طه حسين (مع أبى العلاء فى سجنه) فأعجب به . وقد أثنى فى المقدمة على المؤلف بقوله : « وها أنا أكتب هذه الكلمة وقد أتممت الكتاب مطالعة تدبّر و إمعان . أكتبها معجباً به غير متعجب منه . لأن الدكتور عودنا أن نراه من حين إلى آخر يغوص فى لجج أبحاثه العلمية والأدبية فيخرج لنا منها دراً ثمينة . على أن كلاً من ثبوت إعجابى وانتفاء تعجبى لا يمنعنى من أن أخالف الدكتور فى بعض آرائه » ومما خالفه فيها من الأراء :

(١) يرى المؤلف أن « اللزوميات » نتيجة الفراغ و يرى الرصافى أن قدرة أبى العلاء اللغوية هى التى جعلته « يقول لأهل الفصاحة واللَسَن من أهل زمانه : أيها الناس إننى اقيّد نفسى فى البيان بقيود تشق عليكم ، وأمشى مقيداً بها معكم فى طريق البيان الذى تسلكونه فأسبقكم وأنا مقيد ، وتعجزون عن اللحاق بى وأنتم مطلقون . وهكذا فعل فى « اللزوميات » فكان المجلّى فى حلبه السباق وتركهم وراءه يخبون وهم بين المصلّى والسكيت » .

(ب) ويذهب المؤلف إلى أن القيود التى قيّد أبو العلاء نفسه بها فى نظم اللزوميات أنتجت له التكرار والإعادة ، اللذين ينتهيان بالقارىء إلى ملل وسأم . ويرى الرصافى أن المعرى كرر فى الموضوع ولم يكرر المعنى عينه و « لا ريب أن أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة من البيان ، من الأمور التى قررها فن البلاغة ، وأن التفاضل بين البلغاء لا يقع ، على الأكثر ، إلا فى الطرق المختلفة فى أداء المعنى » .

ثم قال : « هذا ما نقوله فى المعنى الواحد فكيف إذا كان المتكرر موضوعاً واحداً عاماً ، مترامى الأطراف كموضوع ذم الناس مثلاً فإنه يشمل الكلام عن الفضائل والرذائل كلها ، ويعم استشناع العادات والتقاليد بأسرها ، فالمجال فيه واسع والتكرار فيه بأساليب مختلفة وتعابير متنوعة غير ممل ولا مسئم » :

وقد طبعت فصول من الكتب باسم « الجزء الأول » ولما يطبع الجزء الثانى ولا اؤمل أن يطبع .

٩ — عالم الذباب :

وهو جزء من رسائل التعليقات أيضاً . وسبب كتابته أن طبيباً كتب رسالة بهذا الاسم ، وفيها عرض للحديث النبوى الذى تضمن الأمر بغمس الذبابة إذا ما وقعت فى الشراب أو فى الطعام ، لأن فى أحد جناحيها داء فهى تتقى به عند وقوعها فى الشراب أو فى الطعام ، وفى الجناح الثانى دواء . والغرض من غمسها هو غمس جناحها الثانى ليقضى ما فيه من دواء ، على ماترك الجناح الأول فى الشراب والطعام من داء . وأيد المؤلف ما جاء فى هذا الحديث . والرصافى لا يؤمن بصدق الحديث فكتب هذه الرسالة فى الرد عليه .

١٠ — الديوان :

سأتكلم عن الديوان إذا ما عرضت لأغراض شعره .

هذا هى كتبه المطبوعة ، أما ما لم يطبع منها فهو :

١ — الأدب الرفيع فى ميزان الشعر :

فى هذا الكتاب جمع ما ألقاه من الدروس فى علم العروض والقافية على طلاب دار المعلمين ببغداد ، وقد ضمنها أهم ما يحتاج إليه الأديب من الاطلاع على هذا العلم ، وما يفتقر إليه الشاعر من معرفة « صحيح أوزان الشعر وفاسدها » والرصافى يرى الوزن ضرورياً للشعر .

٢ — خواطر ونوادر :

رسالة « أثبت فيها شيئاً مما عنّ له من الخواطر ، وأضاف إليها بعض ما صادفه فى كتب الأدب من المسائل التى لها شأن فى الأدب أو فى غيره من أمور الحياة » .

ومما أثبت فيها رأيه فى الغناء ، فهو يرى « أن الأغانى بغاياتها المقصودة تناسب المعنويات أكثر من الماديات . فهى بأنغامها المطربة لغة تتخاطب بها الأرواح وتتفاهم بها القلوب ... ومما يدعو إلى الأسف أن الأغانى التى يسمعها الجمهور ويصغى إليها ، كلها مأجورة . وما ذلك إلا لأن الحرية الشخصية لم تزل محجورة . . . فمن أتيح له أن يسمع تحت أستار الظلام فى إحدى غرف الحب والغرام غناء من فم مغرم أو مغرمة ، مندفعاً عن قلب مثقل بالغرام ، حاملا فى نغماته روح مغنيه ، خالياً من كل صنعة وكلفة . فقد سمع مناجاة الأرواح وعلم كيف تكون تلك المناجاة فى غناء لا ارتباط له بالماديات » .

٣ — الرسالة العراقية :

كتبها — كما قال — : « لا لتنشر فى العراق الذى لا حرية فيه للكلام ، ولا حرية فيه للرأى والفكر بل لتكون عبرة لمن يطلع عليها » . . وسماها الرسالة العراقية لأنه لم يخرج فى مباحثها عمّا له علاقة بالعراق من سياسة ودين واجتماع » .

وقد تناول فيها نظام الإقطاع بكلام حر صريح ، ذكر فيه أسماء صريحة ، رأيت أن أكتفى منه بهذه الكلمة : « . . . إن العراق اليوم يمثل العصور الإقطاعية بأشوه وجوهها ، وأقبح صورها المنكرة . حيث ترى فيه من يملك ألوف الفدادين من أراضيه التى تسقى سيحاً أو بواسطة المضخات ، وترى فى ملكه الواسع العظيم ألوفاً من الناس يكدون له ويكدحون ويحرثون ويزرعون . وليس لأحدهم من مرافق الحياة سوى ثوب أسمال ورغيف خشكار ، وترى صاحبهم فى نعيم سابغ ، وعز باذخ ، وشرف شامخ ، يقضى أوقاته فى عيش رغيد ، وفى قصف ولهو من كد هؤلاء المدقعين ، الذين يتجرعون كؤوس البؤس والشقاء » .

٤ — آراء أبى العلاء :

رسالة جمع فيها المتفرق من شعر أبى العلاء فى « اللزوميات » وصنفه بالنظر إلى أغراضه وفنونه ثم تناوله بالشرح والتعليق . وقد تحدث عن هذه الرسالة فى كتابه « على باب سجن أبى العلاء » بأنه « استقرى آراء أبى العلاء فى مسائل مختلفة متعددة . . . فأوضحها ومحصها وتابعه فى بعضها وناقشه فى بعض ، كرأيه فى حجب النساء وترك تعليمهن القراءة . ولما ذهب إلى لبنان متطبباً ومصطافاً سنة تسع وثلاثين وتسعمائة وألف ، كانت تصحبه هذه الرسالة فأشير عليه بعرضها على أصحاب مجلة « المكشوف » لتطبع ، وبينما هو فى انتظار جوابهم إذ وقدت نار الحرب فأخذ المصطافون يتركون مصايفهم وأذهله ارتباك الحال فعاد إلى العراق مع العائدين . ثم علم أنهم وافقوا على طبعها ولكن أخروه إلى ما بعد انتهاء الحرب لارتفاع سعر الورق »

وقد انتهت الحرب ، وتوفى الرصافى ولا نعلم من أمر الرسالة وطبعها شيئاً .

وفى كتاب « الشخصية المحمدية » ، كلمة من هذه الرسالة ، جاء بها شاهدا فى بحث القضاء والقدر أنقلها لتكون نموذجاً لهذه الرسالة التى أستطيع أن اسميها مفقودة . قال :

« إن كل حادث فى الكون لا يكون إلا مسببا عن حادث آخر قبله . إذ لا يأتى شىء من العدم إلى الوجود كما لا يذهب شىء من الوجود إلى العدم . فكل حادث لا يحدث إلا مسببا عن حادث آخر قبله يكون سبباً لحدوثه ، وعندئذ يكون السبب هو الحادث الأول والمسبب هو الثانى . . . ثم إن ذلك الحادث الأول الذى كان سببا للثانى لا يكون إلا سببا عن حادث آخر قبله يكون سببا له . وهكذا تمتد الأحداث فى جهة الماضى متسلسلة إلى الأزل فيكون كل واحد منها حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وتكون كل حلقة منها مسببة عما قبلها وسببا لما بعدها ، وهكذا حتى تتصل السلسلة فى الأول إلى السبب القديم الأول الذى هو مسبب الأسباب كلها وهو الله . فبهذا قد حصلت لنا سلسلة من الحادثات ذات طرفين أحدهما وهو الطرف الأخير عندنا ، والآخر وهو الطرف الأول فى الأزل .

أتدرى أيها القارىء الكريم ماهو القضاء والقدر ؟

هما طرفا هذه السلسلة التى صورناها لك . فالطرف الذى فى الأزل هو القضاء الصادر عن مسبب الأسباب وعلة العلل كلها ، والطرف الذى عندنا هو القدر .

قال علماء الكلام : إن تعلق إرادة الله بأمر من الأمور فى الأزل هو القضاء ، وإن إيجاد ذلك الأمر وإظهاره فى الوجود على الوجه الذى أراده الله فى الأزل ، هو القدر . فالسبب القديم الأول الذى ليس له ابتداء كما أنه ليس له انتهاء هو الله ، وتعلق إرادته فى الأزل هو القضاء الذى هو مسبب الأسباب والأقدار كلها مسببة عنه بالتسلسل على الوجه الذى ذكرناه » .

٥ — كتاب الآلة والأداة :

« كتاب جمع فيه ما استطاع أن يجمعه من أسماء الآلة والأداة ، وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات ، لشدة الحاجة اليوم إلى مثل هذه الأسماء ، بكثرة المسميات التى حدثت فى هذا العصر » .

وقد وضع له مقدمة ألمّ فيها بماضى اللغة العربية وحاضرها ، ونقب عن دائها ووصف له الدواء الذى رآه ناجعا . وسأعرض لها عند البحث عن آراء الرصافى فى اللغة .

٦ — رفع المراء فى كلام أهل العراء :

كتاب بحث فيه عن اللغة العامية العراقية بل البغدادية . وكتب له مقدمة باللغة العربية الفصحى سأعرض لما فيها من آراء ، إذا ماتناولت آراءه اللغوية .

٧ — الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس :

كان الرصافى يقول آسفا : « إن المسلمين أضاعوا شخصية نبيهم وهى أعظم شخصية عالمية . وأنهم جرّدوه من عظمته ومزاياه ، ولم يزيدوا على أن جعلوه كالآلة الحاكية إن وضعوا فيها أسطوانة وأداروها حكت وإلا فهى جماد لاحراك فيه .

وهكذا يعتقد هؤلاء بنبيهم إذا جاءه جبريل نطق ودعا ، ونصح وهدى ؛ وإلا فلا رأى له ولاقول » فالنبى إذن مايزال لغزاً وأنه هو الذى سيحل هذا اللغز ولهذا سمى كتابه « الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس » وقد كتب كتابه بحرية وصراحة ناظرا إلى شخصية الرسول كما ينظر إلى أية شخصية من البشر ، ولكنه يرى أن قد « اجتمعت فى شخصيته من عناصر الكمال البشرى ما لم يعرف اجتماعه فى أحد قبله : عزم لايرده رادّ ، وتفكير عميق الغور ، بعيد المرمى ، وخيال واسع قوى يكاد يقاوى الحقيقة بقوته ، وطموح إلى العلا لايعلو عليه طموح .

هذه هى العناصر الأصلية التى تتكون منها شخصية محمد . أضف إلى ذلك ما أوتيه من غزارة عقل وثقوب ذكاء » .

وعند الرصافى أن معجزة النبى العربى الوحيدة هى النهضة العالمية العظيمة التى « جاء بها عربية المبتدأ ، عالمية المنتهى فأحدث بواسطتها أعظم انقلاب عام فى الدين والسياسة والاجتماع بدّل مجرى الحياة الإنسانية ، وحوّلها إلى ما هو أعلى مما كانت

عليه قبلها . حتى إن آثارها فى قليل من الزمن عمت الشرق والغرب ، ولم تزل آثارها باقية إلى يومنا هذا وستبقى إلى ما شاء الله » .

وقد ذكر هذه النهضة العالمية أو هذه المعجزة فى مواطن كثيرة من كتابه منها قوله :

« لاريب أن نشأة محمد بن عبد الله المعلومة ، وقيامه بأعباء النبوة ، وما لقى فيها من المصائب ، وما اقتحم فى سبيلها من المتاعب والمشاق ، وما آتاه الله من عزم شديد ، وخلق عظيم ، وعقل راجح حصيف . . . . . حتى أوجد بها من العدم أمة ناهضة فى سبيل الحق والحرية ، فقامت قومة رجل واحد تدعو إلى الله حتى دوخت البلاد وخضع الحاضر والباد ، وامتدت فى أقطار الأرض شرقا وغربا فى مدة يسيرة لا تتجاوز نيفا وعشرين سنة . لهى المعجزة الكبرى التى تتضاءل دونها جميع المعجزات . وإن هذه المعجزة على عظمها وجلالها لم تقع إلا وفق ما جرت عليه سنة الله فى خلقه ، ولولا ذلك لما كانت معجزة ، ولا دلت على ما لمحمد من مقام رفيع ، وفضل عظيم » كما أثنى عليها وافتخر بها فى شعره فقال :

ومذ قام ابن عبد الله فيهم أقام لكل مكرمة عمودا
وأنهضهم إلى الشرف المعلّى وكانوا عنه وقتئذٍ قعودا
فأصبح وارياً زند المعالى وقبلاً كان مقدحه صلودا

وقال :

كفى الجزيرة فخراً فى مكارمها قبر أناف بها قدراً على الشهب
قبر بتربتها قد ضمّ جوهرة من معدن الله لا معدن الترب
قامت بصاحبه للعرب نهضتهم تذكو بعزم لهم كالنار ملتهب
جاشت كتائبهم كالموج صاخبة ترغو بمثل هزيم الرعد فى السحب
تمخضوا من سماع الوحى عن همم نالوا بها أنجم الجوزاء من كثب

وقال عنهم :

فدوّت بمستنّ العلى نهضاتهم كزعزع ريح أو كتيّار عيلم
وعمّا قليل طبّق الأرض حكمهم بأسرع من رفع اليدين إلى الفم

وقال عن صاحب الرسالة ونهضته :

أنهض القوم للعـــلاء وكانت فى دنى القــوم رقدة وخمول
فاستقلّت به على الدهر يقظى همم يعربيـــة وعقـــول
تلك فى الدين نهضة هى للعقـــل انتباه وللهـــدى تأثيل
نهضة عالميـــة فى وغاها من أمام البعير فرّ الفيل
هى كالبرق سرعة والتمـــاعاً كل أفق بفضلها مشمول
خضعت فارس لها عن صغار وتداعى إيوانها المســتطيل
وإلى اليوم قام فى الهند منها أثر مثـــل طودها لا يزول
يعرف النيـــل فضلها وعلاها من قديم ويشهد الدردنيل

أما المنهاج الذى اتبعه فى تأليف هـذا الكتاب فهو القرآن والعقل . ومن مباحثه فصل كتبه فى « الرواية عند العرب » قال فيه :

« . . . وقد تقدم أن القرآن أصح ما بلغنا عنه ، فيجب أن نعتمد عليه فى معرفة محمد أكثر من غيره . أما كتب الحديث والسير فلا يجوز الاعتماد عليها إلا بعد أن نضعها فى غربال منسوج من المعقول ومن القرآن فنغربلها ؛ فما سقط منها تركناه ، وما بقى فى الغربال أخذناه » .

آراؤه فى الأدب واللغة

وقفتم على آراء شتى للرصافى من أطلاعكم على ما أوردت من أمثلة أخترتها من مؤلفاته ، وستقفون على طائفة أخرى من آرائه فى الأدب واللغة وعلومهما . ولنبدأ بالشعر .

الوزن والشعر المنثور :

يرى الوزن ضروريا للشعر إذا أردنا الشعر بمعناه الخاص ، لأنه « وليد الغناء والرقص ، ولأنه لا يقال إلا لينشد ويتغنى به . والغناء نغم وإيقاع ، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام . ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة والحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه » و « إطلاق الشعر على المنثور إنما هو إطلاق بالمعنى العام أى من حيث أنه يؤثر فى النفوس تأثيرا شعرياً »

أما القافية فانه لايجارى الذين « عابوا على الشعر قوافيه بأنها تكرار ممل » ويرى « أن القافية لا تتكرر فى الشعر ، وتكرارها عيب عند العرب يسمى بالإيطاء ؛ وإنما يتكرر حرف واحد وهو الحرف المسمى بالروى . فالمعنى فى كل قافية غير المعنى فى سواها من أخواتها . . . على أن تكرار بعض النغمات فى الموسيقا أمر لا محيد عنه وهو مسموع ومألوف . وما تكرار حرف الروى فى الشعر إلا بمنزلة تكرار بعض النغمات فى الموسيقا » .

جمود اللغة :

يرى أن « لغة كل أمة مقياس رقيها » وأنها « تلو حالتهم الاجتماعية وتبيع ارتقائهم فى مدارج المدنية » وأن اللغة العربية « مضى عليها زمان كانت فيه سيدة اللغات إذ كان أهلها سادة الناس ، وقادتهم إلى المعالى » ولكن « لما قلب الزمان

للعرب ظهر الجمن غلبوا على أمرهم . . . فتوقفوا عن التقدم ، وما بعد التوقف إلا الانحطاط فتوقفت معهم لغتهم ،غير أنها لم تكن تابعة لهم فى انحطاطهم .لأنها مدونة فى كتبهم ، ومحفوظة فى آثارهم المخلدة . فتقهقروا هم ولم تتقهقر هى معهم بل بقيت متوقفة لا تقدم رجلا ولا تؤخر أخرى . وهذا هو الجمود » .

وقد برأ اللغة العربية من عجزها عن مجاراة لغات الأمم الراقية ، ورأى عجزها عن تلكم المجاراة « إنما هو عجز أهلها وجمود الناطقين بها » .

هذا هو داء اللغة العربية — فيما يرى — أما الدواء الناجع الذى يراه كفيلا بأن يزيل عنها هذا الجمود ، ويجعلها نامية متجددة فهو الاشتقاق والتعريب ، وهما الطريقان اللتان سلكهما أسلافنا « وسددناهما ظلماً وعدواناً » .

الاشتقاق :

إنه يخالف من يقول من علماء اللغة ، بأن الاشتقاق سماعى فى الجوامد والمصادر بل يراه سماعياً فى الجوامد فقط لأن « الجوامد ذات معان ثابتة غير متبدلة ولا متغيرة فلم يكن فيها سبب داع إلى الاشتقاق والتوليد ، لما فيها من العقم المحض . بخلاف المصادر فإن معانيها متغيرة لا تستقر على حالة واحدة » ومن رأيه « أن كون الاشتقاق قياسيا فى المصادر أمر ضرورى لا بد منه ، وهو من أكبر مزايا اللغة العربية ومن أجلى حقائقها الثابتة » .

التعريب :

أما المعرَّب فيراه قياسيا . ويقول فى المسميات المستحدثة : « لا بد أن يكون لكل واحد منها فعل تفعله . . . فإذا استطعنا أن نشتق لها من فعلها اسماً فذاك ، وإلا نظرنا فيها ، فإن كانت مما شاع على ألسن العامة استعملناها كما استعملتها العامة أو أجرينا فيها بعض التغيير » ويضرب لنا مثلا بما أجراه من التغيير فى كلمة

(اوتومو بيل) فقد غيرها « إلى (تومبيل) كزنجبيل لأن وزنها غير مألوف عندنا » والنطق بها ثقيل على ألسنتنا » واستعملها فى شعره فقال :

وفدفد قاتم الأعماق متسع طويت أجوازه طىّ المكاتيب
بتومبيل جرى فى الأرض منسرحا كما جرى الماء من سفح الأهاضيب

ومن رأيه « أن نشتق منها فعلا فنقول تمبل تمبلة أى ركب التومبيل أو ساقه أو حركه فهو متمبل . فإن قال قائل : من الذى أجاز لك أن تشتق هذا الاشتقاق العجيب ؟ قلت : الذى أجاز للعرب أن يشتقوا منجق من منجنيق إذ قالوا منجق القوم إذا رماهم بالمنجنيق » .

رأيه فى المعجمات :

يرى أن معجمات اللغة « التى بين أيدينا » غير كاملة لأنها « لم تثبت جميع مفردات اللغة » فهى إذن غير جديرة بالاعتماد عليها اعتمادا مطلقا ، فى أن اللفظ الذى لم يرد فيها لفظ غير مسموع أو غير واقع ، أو أن نستدل من خلوها منه على أن العرب لم تنطق به . لأن عدم السماع لا يستلزم عدم الوقوع . . . إذ يجوز أنه قد وقع وأن العرب نطقت به ولكنه فات الرواة فلم تروه ولم تنقله . لأن نقلة اللغة أكثر ما يعتمدون فى نقلها على الشعر ، ومن الجائز فى الكلمة المحكوم فيها بعدم السماع أنها لم تقع فى الشعر ، بل وقعت فى النثر الذى لم تضبطه الرواة ولم تنقل منه ولا عشر معشار » وضرب مثلا كلمة « دعاية » التى لم ترد فى كتب اللغة حتى صار « بعض المتنطسين من الكتاب » يستعملون بدلها كلمة «دعاوة» مع أنها «وردت فى الكتاب النبوى الذى أرسل إلى قيصر إذ جاء فيه : (. . . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . . .) وهى وإن كانت مخالفة للقياس فإن مخالفتها هذه لا تقدح فيها لأن فى اللغة شواذاً كثيرة وهذه منها . ولا يعترض علينا بأن الشاذ غير فصيح لأن فصاحة الكلمة إنما تثبت باستعمال الفصحاء إياها وقد استعمل كلمة (دعاية) سيد الفصحاء »

وعلى هذا فإن المشتقات فى المصادر التى يراها الرصافى قياسية ، لايطعن فى كونها قياسية عدم سماعها لأنه « لا يجوز أن يكون عدم السماع حجة فى منع قياسها أولا . وثانياً يكتفى بجواز استعمالها بسماع نظائرها المطردة المقيسة . فإن العرب إن لم تقل (حابّ) من حبَّ فقد قالت : سابّ من سب ، وعادّ من عد ، ورادّ من رد » .

فن القراءة :

وعرض لفن القراءة العربية فقال عنه : « إن فن القراءة عندنا من أصعب الفنون . لا تكاد تسمع رجلا مصوناً من الخطأ فى القراءة ، ولو كان من أعلم الناس بالعلوم العربية » واتخذ من نفسه مثلا ضربه فقال : « درست العربية أكثر من اثنتى عشرة سنة على أعلم رجل بها فى بغداد ، ومارست آدابها طول حياتى ، وتدبرت كتب الأدب ، واستعنت على مفردات اللغة برواية الشعر ، فكنت أحفظ أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر الجاهلى والإسلامى ، وقلت الشعر حتى زعم بعض الناس أننى أجيده ، وأنا مع ذلك كله لست مصوناً من الخطأ فى القراءة » .

اللغة العامية :

اللغات فى رأيه « من أكثر الأشياء خضوعا لعاملى الزمان والمكان . . . وقد تعاورت اللغة العربية أزمنة وأمكنة أوصلتها إلى ما هى عليه اليوم من اللهجة المعلومة التى تلوكها أفواه العامة لوكا مختلفا باختلاف الأصقاع » غير أنه يرى لهذه اللغة مزية لا تجحد هى « أنها جارية مع الزمان فى مفرداتها . فهى تنمو كل يوم بالأخذ من غيرها بخلاف العربية الفصحى » .

وله أبيات كتبها إلى صديقه عبود الكرخى الشاعر الزجال ، عندما رآه يستعمل اللغة الفصحى فى شعره العامى وإن هى إلا غضبة نفسية شديدة على أبناء اللغة العربية لإهمالهم لغتهم ، وتقاعسهم عن دراستها وتعلمها . قال :

دع هذه اللغة الفصحى فنحن بها ظلفا نخاطب جيلا غير موجود
فالناس غيَّرت الأيام لهجتهم بكل لحن على الأفواه معقود
واستعجمت لغة الأعراب بعدهم فليس تنساغ منهم فى اللغاديد
وإن قرعك بالفصحى مسامعهم أمسى كقرعك جلموداً بجلمود

ثورات الرأى

كل من تتبع الرصافى ، فى مراحل حياته ، إذا ذكرت أمامه آراؤه التى جاهر بها تذكر ما عانى من أزمات شديدة من جرّائها . وليس هذا بالأمر العجيب فإنه لم يعان غير ما عانى زملاؤه أحرار الفكر ، هداة الإنسانية ؛ فصارع خصوماً أشدّاء تألبوا عليه ، وأثاروا الرأى العام مرات عديدة . وهم فى كل مرة يثيرونه فيها يضربون على وتر الدين ، وهو وتر حساس جداً يثور الناس إذا سمعوه ، وهم لا يدرون لماذا يثورون ، ويقومون له ويقعدون وهم لا يعلمون لماذا يقومون ويقعدون . وهم فى ذلكم كله يجهلون الأسباب الحقيقية التى تختفى وراءه .

دأبت لنفسى فى الحياة كأننى من العيش ملقى فى شدوق الضراغم
يخاصمنى منها على غير طائل أناس فابدى الصفح غير مخاصم

وكم مرة ناوءوه ، وكم مرة أفتوا بكفره وخروجه من الدين ! وحسبى أن أطرق باب شعره لأقفكم منه على ما أحدثت ثوراتهم فى نفسه من أثر .

إذا نظرنا فى شعره رأيناه قد تصدى لهؤلاء الخصوم فى مواطن كثيرة منه . فتارة يوسعهم هجواً على تكفيرهم إياه ، وينازعهم نزاعاً شديداً فى كونه مسلماً مؤمناً ؛ وتارة يلومهم ويعنفهم على تسرعهم فى جداله قبل أن يفهموا ما يريد :

ومن عناء الليالى أن يجادلنى من ليس يقرع بالبرهان برهانى

ومن شعره الذى هجا به مكفريه قوله :

وإن كنت قد كفرتنى بجهالة فبالبهت كم كفرت من مسلم قبلى
وإنك فى تكفيرك الناس كافر تهاون بالله الذى جل عن مثل
رويدك قد كفرت يا وغد مؤمناً وكذبت فيما تدعى سيد الرسل
وأنت من الإسلام فى كل حالة بمنزلة الظلم الصريح من العدل

وقوله :

يا أيها المفتى بتكفيرنا مهلا فقد جئت بأمر نكير
بأى جهل فيك مستأصل علمت ياجاهل مافى الضمير
وذاك أمر ليس تنقاشه إلا يد الله العليم القدير
لوكنت ذا مجد لأصلتك من هجائنا الأيام نار السعير

وقوله :

وإذا تأوّل قولهم متأوّل صرفوه بالتكفير عن تأويله
وإذا تكلم عالم فى أمرهم خفروا ذمام العلم فى تجهيله

وقوله :

لقد مزقوا أحكام كل ديانة وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الأديان إلا ذريعة إلى كل شغب بينهم وعداء

وقوله :

إذا سلكت إلى الإصلاح مسلكه فأنت فى رأيهم بالكفر متهم
وإن تصادمت بالعادات تنكرها فأنت فى زعمهم بالدين تصطدم
وإن أتيت ببرهان فأعجزهم لم يحسنوا الرد بل من عجزهم شتموا
وإن تقل لهم قولاً لتقنعهم شدّوا عليك وردوا قبلما فهموا
خلائق كظلام الليل من يرها يقل بأمثال هذى تمسخ الأمم

ولم يقف عند هجوهم ووصفهم ، ولم يقنع بمجرد ادعائه براءته من الكفر وإثبات كونه مسلماً مؤمنا ، بل يرمى مكفريه بالكفر ويدلى بأدلّته على كفرهم فيقول :

رويدك إن الكفر ما أنت قائل وإن صريح العرف ما خلته نكرا
هل الكفر إلاّ أن ترى الحق ظاهراً فتضرب للأنظار من دونه سترا
وأن تبصر الأشياء بيضا نواصعا فتظهرها للناس قانية حمرا

وقد أورثته تلكم الثورات عطفاً نفسياً على كل من أوقعته المصادفات فيما وقع فيه ، فصار بشعر بضرورة الانتصار له والدفاع عنه دفاعه عن نفسه . كما وقف من الضجة التى قامت فى مصر ، ضد الدكتور طه حسين حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » وضد الأستاذ على عبد الرازق حول كتابه « الإسلام وأصول الحكم » فقال فى القصيدة التى أنشدها فى حفلة تكريم شوقى :

إذا احتفلت مصر بشوقى فما لها ... نقيم على الأحرار فى العلم حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها ... علياً وطه حاصباً متطايرا
فما بال هذا عدّ فى مصر مارقاً ... وما بال هذا عد فى مصر كافرا
إذا لم تك الأفكار فى مصر حرة ... فليس لمصر أن تكرم شاعرا
وتكريم رب الشعر ليس بمفخر ... لمن كان عن حرية الرأى جائرا
وإلاّ فعصر الجاهلية قبلنا ... له السبق فى تكريم من كان شاعرا

على أن الحق يقتضينى أن أقول : إن من رجال الدين من لم يندفع اندفاع غيره فى الإفتاء بكفره بل تريث كثيراً ، ورأى أن يقف بادىء الأمر على ما قال ، ثم يجادله فى قوله ، فإذا ثبت له كفره استتابه ، فإذا أبى وأصرّ على رأيه ، أفتى حينئذ بكفره . وقد رأينا الرصافى وفيا لهم . فمن أولئك الشيخ عبد الوهاب النائب وهو من علماء أهل السنة والشيخ محمد الخالصى ، وهو من علماء الشيعة ، فقد جزاهما برثائه ، وما يجزيهما عنه غير شعره . ومما قال فى رثاء الأول .

كيف لا تجزع العلوم لمنعى ... رجل باعه بهنّ طويل
عذرة يا أبا الحسين بماذا ... نصف الرزء وهو رزء جليل
وإذا طاشت الحلوم بيوم ... فيه فارقتنا فماذا نقول
أخرس الشعر يوم منعاك لكن ... ناب عنه تأوّه وعويل
وإذا أسكت المقاويل حزن ... ترجمت عنهم دموع تسيل

ومما قال فى رثاء الثانى :

نعى الخالصىّ فارتجت الأنفـــس حزنًا مضرّجًا بحماسه
كان فى الدين آية الله أفنى الـ ـعمر فيه رعاية وحراســه
أفق العلم قد بدا مكفهرًّا عند ما أطفأ الردى نبراسه
إن بكاه الدين الحنيفى شجوًا فلأن كان ركنه وأساسه
كان ردءًا للحق مرتدى التقـ ـوى فكانت طول الحياة لباسه

شعره

شعر الرصافى أصفى مرآة تنعكس عليها حياة أمته انعكاساً صادقا أميناً ، وخير سجل للحقبة التاريخية التى اجتازها العراق منذ أواخر العهد العثمانى إلى يوم وفاة الرصافى . وفى وسع المؤرخ أن يركن منه إلى مصدر لا يكذبه ، ويطمئن إلى مرجع لا يخدعه .

ولما كان قد لمس حاجات الأمة وشعورها لمساً حقيقيا بحكم نشأته بينها . وشاركها فى تذوق مرارة البؤس ، وشاطرها مضاضة الحرمان ، فإنه إذا ما نظم فإنما ينظم عن شعور مستكنّ فى أعماق ضميره ، ويترجم عما يجيش فى نفسه من حسّ صادق أصيل لا تصنع فيه ولا تكلّف . فلا عجب إذا كان أبرع مصور لبؤس الأمة ومآسيها ، ولا غرابة إذا أصبح أصدق مترجم عن آلام الشعب وأحزانه . وهو إذا ما صور لوحة من تلكم اللوحات الكئيبة ، لا يكتفى بمجرد التصوير بل يتخلص منه إلى استنهاض الأمة ، بعد أن يأخذ عليها ركودها وجمودها ، ويعيب عليها رضاها بما هى فيه ، ويدعوها إلى أن تطمح إلى حياة أعز ، ومنزلة أسمى . فإذا ما كتب عن « اليتيم فى العيد » مثلا ، فإنه لا يقف عند وصفه حاله وحال أمه وما يقاسيان من معيشة ضنك ، وفقر مدقع بل اسمعوه يقول :

فعدت وقلبى جازع متوجع ... وقلت وعينى ثرّة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه ... يجدد للمحزون حزناً فيجزع
وجئت إلى ميعادنا عند صاحبى ... وقد ضمّه والصحب ناد ومجمع
فأطلعتهم طلع اليتيم فأفظعوا ... وخبّرتهم حال السجين فرجعوا
فقلت دعوا التأفيف فالعار لاصق ... بكم واتركوا الترجيع فالأمر أفظع
ألسنا الالى كانت قديماً بلادنا ... بأرجائها نور العدالة يسطع

فما بالنا نستقبل الضيم بالرضا ونعنو لحكم الجائرين ونخضع
نهوضاً إلى العز الصراح بعزمة تخرّ لمرماها الطغاة وتركع
ألا فاكتبوا صك النهوض إلى العلا فإنى على موتى به لموقع

وإذا ما هاجه منظر « السجن فى بغداد » فلا يحصر مقاصده فى وصف السجن وضيقه وظلمته ، وما يكابد فيه المسجونون من نكد وشقاء ، بل يختم قصيدته بقوله :

ألا رب حرّ شاهد الحكم جائرًا يقود بنا قود الذلول المعبّد
فقال ولم يجهر ونحن بمنتدى به غير مأمون الوشاية ينتدى
على أىّ حكم أم لأية حكمة ببغداد ضاع الحق من غير منشد
فأدنيت للنجوى فمى نحو سمعه وقلت : لأن العدل لم يتبغدد
رعى الله حيًا مستباحاً كأنه من الذعر أسراب النعام المطرّد
وما صاحب البيت الحقير بنأوه بأفزع من رب البلاط الممرّد
وما ذاك إلا أنهم قد تخاذلوا ولم ينهضوا للخصم نهضة ملبد
فناموا عن الجلّى ونمت كنومهم سوى نوحة منى بشعر مغرد
وكم رمت إيقاظا فأعيا هبوبهم وكيف وعزم القوم شارب مرقد
نهوضاً نهوضاً أيها القوم للعلا لتبنوا لكم بنيان مجد موطّد

أغراض شعره :

يرى الرصافى أن الشعر والنثر كليهما يصلحان لجميع المعانى .

بهذا صرح فى كتابه (رسائل التعليقات) مخالفاً رأى الدكتور زكى مبارك فى أن « هنالك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر » ورآه قولا « ينبو عنه الفهم . لأن النثر يصلح لجميع المعانى وكذلك الشعر . فإن الشاعر يستطيع أن يعمد إلى حقيقة مادية جافة فيلبسها ثوباً قشيبا من الخيال ويظهرها للناس بصورة شعرية » . وضرب أمثلة لشعراء العرب

الذين طرقوا أبواب علوم مختلفة فما ضاق الشعر فى وجوههم . وتجنب أن يضرب أمثلة من شعره وهو الذى طرق فيه أبواباً من العلوم عديدة ، واتخذ من الكون كله غرضاً له . وقد أعانه على بلوغ ما أراد بيان سهل ناصع ، وقريحة ثرة ، وديباجة مشرقة ، وأسلوب واضح لا حشو فيه ولا تعقيد ، وألفاظ مختارة منتقاة ؛ فخلف لنا هذه الثروة الشعرية بمعانيها الغزيرة الفياضة ، وبوّبها هذا التبويب الذى ترونه فى ديوانه ؛ ونظم بعد الديوان قصائد ومقطعات سيلحق كل منها ببابه .

على أن تبويب الديوان لم يجر على إطلاقه . فرب سياسة واجتماع ومدح وهجاء احتلت أماكن من قصائد الوصف ، ورب وصف شمل قصائد السياسة والاجتماع والكونيات والحريقيات مثلا . وهكذا يقال فى كل باب من أبواب الديوان . فالتبويب إذن جاء فى الأعم الأغلب .

مشاهد البؤس :

كانت مشاهد البؤس والشقاء تهيج عاطفته ، وتستثير شاعريته . وقد قال فى حديث له : « . . . . فكانت مشاهد البؤس من أشد الدواعى عندى إلى نظم الشعر » .

وفى شعره كثير من مشاهد هذا البؤس ؛ منه المتفرق بين قصائده ، ومنه ما استقلت به قصائد غرّ محجلة مثل « اليتيم فى العيد » و « السجن فى بغداد » و « المطلّقة » و « اليتيم المخدوع » و « الأرملة المرضعة » و « أم الطفل فى مشهد الحريق » و « المهجورة » وغيرها .

أما المتفرق المنبث بين قصائده فحسبى أن أروى منه هذه الأبيات وهى من قصيدته (العالم شعر) :

ونائحه تبكى الغداة وحيدها بشجو وقد نالته ظلماً يد القهر
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكم عليه قضى بطلا بها وهو لا يدرى

فويل له من حاكم صبَّ قلبه ... من الجور مطبوعاً على قالب الغدر
أضرَّ بعف الذيل حتى أمضّه ... ولم يلتفت منه إلى واضح العذر
تخطفه فى مخلب الجور غيلة ... فزج به من مظلم السجن فى القعر
تنوء به الأقياد إن رام نهضة ... فيشكو الأذى والدمع من عينه يجرى
تناديه والسجان يكثر زجرها ... عجوز له من خلف عالية الجدر
بنى أظن السجن مسَّك ضرُّه ... بنىَّ بنفسى حلَّ ما بك من ضر
بنى استعن بالصبر ما أنت جانياً ... وهل يخذل الله البرىء من الوزر
فجئت أعاطيها العزاء وأدمعى ... كأدمعها تنهل منى على النحر
وقلت وقد جاشت غوارب عبرتى ... ألا إن هذا الشعر من أقتل الشعر

وأما القصائد فمن العسير أن أرويها لكم وأن أتناول كل واحدة منها بالدراسة والتحليل لهذا اخترت لكم منها قصيدة « الفقر والسقام » واتخذت منها مثالا لشعره القصصى الحزين الذى يمثل أثر البؤس والآلام فيه . وأراها تجزى عن غيرها من قصائده .

الفقر والسقام :

بشير رجل فقير معسر ، لا حرفة له يستمد منها مورد عيشه ، فكان يقضى نهاره متكسباً أجيراً ، حتى إذا جنَّ عليه الليل أوى إلى بيت قديم « صفعته فمال كف الخراب » حيث يجد أخته العانس « فاطماً » فى انتظاره فيحمل إليها ما درَّ عليه تكسبه سحابة يومه ليستعينا به على العيش .

لبثا حينا من الدهر أليفين قانعين بهذا النزر اليسير من الربح . ولكن الزمان العاتى لا يدع الناس يسيرون فى حياتهم سيراً مطرداً فأصاب بشيراً فى صحته وهى رأس ماله الذى يعتمد عليه .

فاعتراه داء المفاصل حتى ... عاقه عن تعيش واكتساب

فاضطر إلى ملازمة بيته يصارع مرضا شديد الوطأة ، وهو أعزل فى صراعه لأن فقره حال بينه و بين الطبيب الذى يستعينه على مغالبة هذا العدو الغشوم ، فظل بين جدران بيته المتداعية .

تسمع الأذن منه صوتا حزينا راجفا فى حشا الظلام كمينا
يملأ الليل بالدعاء أنينا رب كن لى على الحياة معينا
رب إن الحياة أصل عذابى

يئن و يدعو ، وهو يعانى ظلم عدوّين عنيدين لا يرحمان . فقره وسقامه .

فهو حينا يشكو إلى السقم عدما وهو يشكو حينا إلى العدم سقما
باكيا من كليهما بانتحاب

وكلما مرت الأيام زاد سقامة استفحالاً ، وتمادى به فأزمن ، وأنشب أظفاره فى قلبه حتى « كان هينًا فصار داءا عضالا » . فلم يجد من يفضى إليه بمكنون نفسه إلا أخته التى « حكته خلقًا نزيها » وصار يشكو إليها ضعفه وعجزه عن ممارسة عمله ، ويعتذر ضمنًا عن تقصيره فى واجبه نحوها فكانت « تعزيه وهو لا يتعزى » فعمدت إلى دريهمات كانت قد ربحتها من غزلها وأدخرتها لمثل هذا اليوم الأسود وشرعت تنفق منها حتى نفدت . .

انتظر المريض ذات يوم أن تأتيه أخته بالطعام فى الأوقات التى اعتاد أن يتناوله فيها ، فرأى الأوقات تمر دون أن تأتيه بشىء حتى اشتد به أوار الجوع . فلم يتمالك أن شكا إليها جوعه وطلب منها خبزاً يسد به رمقه فالتمست منه أن ينتظر قليلا .

ثم جاءت بالماء تبدى اعتذارا وهل الماء وهو يطفىء نارا
يطفىء الجوع ذا كيًا فى التهاب ؟ !

ضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وأظلم نورها فى ناظريه ، فناجى أخته بأنينه الذى يقطع نياط القلوب .

مرضينى شقيقتى مرضيتى وعلى الكسب فى غد حرضينى
و إذا مسك الطوى فارفضينى أو على الناس للمبيع اعرضينى
علّهم يشترونى مما بى

فلم تجد بداً من أن تخرج عن إبائها وعزة نفسها وتشكو إلى الجيران حالتها وحالة أخيها فتصدقوا عليها بما أطعمت أخاها وطعمت .

* * *

فى ليلة من ليالى الشتاء ، اكفهر سحابها ، وأرغت رعودها ، وتوالت بروقها ، أخذ أنين السقيم الفقير يخف حتى انقطع أو كاد ، وامتدت يداه فى فراشه ، ولم يبق فيه إلا « طرفه كالسها يبين ويخفى » فكلمته أخته لتعلم أجوع أسكته أم نوم أظله . ولما لم تحظ بجواب دنت منه فشعرت بالحمام يدِب فى أوصاله فما أطاقت احتمال هذا المنظر الأليم وخرجت من البيت .

وهى تبكى والغيث يهطل هطلا مثل دمع من مقلتيها استهلا

فرفعت طرفها إلى السماء تستنجد وتستغيث .

رب أدرك باللطف منك شقيقى وامنع الغيث رب عن تعويقى
ومر البرق أن يضىء طريقى ببريق يبديه إثر بريق
فعسى أهتدى به فى ذهابى

قرعت باب جارها ، ونادت ربة الدار ، فلبت نداها هى وابنتها فتخطين فى الدجى بانسياب » إلى حيث يرقد السقيم المحتضر .

فدخلن المحل وهو مخيف حيث إن السكوت فيه كثيف
وضياء السراج نزر ضعيف وبه فى الفراش شخص نحيف
دب منه الحمام فى الأعصاب

ولما اقتربن منه لم تقو أخته على أن تبصر أخاها وهو يعالج سكرات الموت ، وطلبت من جارتها أن تدنو منه وتراه :

فرأت منه إذ دنت نحو فيه نفساً مبطىء التردّد فيه
ثم قد غاله الردى باقتضاب

فوجمت ، وما أرادت أن تفاجىء أخته بهذا النبأ الذى تعلم مبلغ وقعه السيّىء فى نفسها ، بل اكتفت بأن .

رمقت فاطماً بطرف كليل فيه حمل على العزاء الجميل
فعلا صوت فاطم بالعويل وبكت طول ليلها بانتحاب

حتى جاءها فى الصباح .

بعض جاراتها وبعض رجال من صعاليك أهل ذاك الجناب

فرأوا دمعها الحنون يجرى مدراراً على أخيها وهو ملقى على الأرض « مدرج فى رثائث الأثواب » وهى تتلفت حولها فلا تجد المال الذى تنفقه فى تجهيز أخيها وتكفينه . وهؤلاء الرجال ظلوا ينتظرون ، والميت « ملقى إلى أوان الزوال » . فلما شعرت بحراجة الموقف ودقته التفت إليهم وصرخت من أعماق قلبها الكئيب الحزين .

أيها الواقفون لا تهملوه دونكم أدمعى بها فاغسلوه
ثم بالثوب ضافياً كفنوه وادفنوه لكن بقلبى ادفنوه
لا تواروا جبينه بالتراب

فلما صرحت بحقيقة الواقع ، ووقف الحاضرون على جلية أمرها .

جاد شخص عليه بعد سؤال بريال وزاد نصف ريال
رجل حاضر من الأنجاب

بهذا المبلغ الزهيد تمكنوا من تجهيزه وتكفينه تجهيزا وتكفينا يناسبان عوزه ومتربته .

فترى نعشه غداة استقلاّ نعش من كان فى الحياة مقلاّ
دون ستر مكسّر الأجناب

ولما حمله المشيعون وهمّوا أن يسيروا به إلى القبر .

ناحت الأخت حين سار وصاحت أختك اليوم لو قضت لاستراحت
ثم سارت مدهوشة ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت
تسكب الدمع أيما تسكاب

ثم التفتت إلى حامليه ، وهم يحثون الخطا مسرعين وقالت :

أيها الحاملوه لا مشى ركض إن هذا يوم الفراق الممض
فاسألوه عن قصده أين يمضى إنه قد مضى ولم يك يقضى
واجبات الصبا وشرخ الشباب

فلم يلتفتوا إليها بل ساروا به إلى مرقده الأخير، وخلفوها حليفة الندب والبكاء والنحيب :

إن قلبى على كريم السجايا طاح والله من أساه شظايا
قاتل الله يا أبن أمى المنايا أنا من قبل مذ حسبت الرزايا
لم يكن رزء موتكم فى حسابى

إن ليلى ولست من راقديه كلما جاءنى وذكرنيه
قلت والدمع قائل لى : إيه يا فقيداً أعاتب الموت فيه
ببكائى وهل يفيد عتابى

* * *

وخرج شاعرنا ذات يوم بعد مرور سنتين على وفاة بشير يتمشى « بشارع الميدان » :

مشىَ حيران خطوه متدان أثقلته الهمـــوم بالأحزان
وسقته كأساً كطعم الصاب

فلمح على بعد نعشاً محمولاً قد :

نقش الفقر فيه للحزن نقشاً فبدا لوح أبؤس واكتئاب

فهفا قلبه إليه وناجاه سراً وهو يدنو منه :

أيها النعش أنت أنعشت حزنى للأسى فيـك حالة ناسبتنى
إن بدا اليوم فيك حزنى فإنى أنا للحزن دائماً ذو انتساب

مرّ النعش مسرعاً من أمامه فراح يسعى وراءه مع مشيعين « كأنجم النعش عدا » دون أن يعرف من هو المحمول فيه . وبعد أن لحدوا الميت وعاد المشيعون سأل أحدهم عمن لحدوا :

قال : إن الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقير
بقيت بعـــده بعيش عسير وبطرف باك وقلب كسير
وقضت مثـــله بداء القُلاب

قلت : أقصر عن الـكلام فحسبى منك هـذا فقد تزلزل قلبى
ثم ناجيت والضراعة ثوبى رب رحماك رب رحماك ربى
رب رشداً إلى طريق الصواب
رب إن العبـاد أضعف ألّا يجدوا منك رب عفواً وفضلا
فاعف عن أخذهم وإن كان عدلا أنت يارب أنت بالعفو أولى
منك بالأخذ والجزا والعقاب

قد وردنا والأرض للعيش حوض واحد ؛ كلنا لنا فيه خوض
فلماذا به مشـــوب ومحض عظمت حـكمة الإلهَ فبعض
فى نعيم و بعضنا فى عذاب

و بعد هذه الثورة النفسية العارمة التفت إلى الأغنياء يلومهم و يقرعهم :

أيها الأغنيـاء ، كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم
سهر البائســون جوعاً ونمتم بهنـاء من بعد ما قد طعمتم
من طعـــام منوع وشراب

فى غمار السياسة

قد أبت هذه السياسة إلّا أن تكون الغشاشة الدساسه
وأبت أن تصافح الناس إلا بيد من خديعة فرّاسه
ما تعاطى غير الخداع « غلادستون فيها كلا ولا « دلكاسه »
إن أحسّت بقوّة من خصيم كانت الظبى لم يزايل كناسه
و هى إن آنست من الخصم ضعفاً كانت الليث مبرزاً أضراسه

هذا ما أملته عليه تجاريبه بعد مواقف سياسية عديدة وقفها فى حياته قال عنها :

ولقد وقفت من السياسة موقفاً محياى فيه على التّوى معروض

هذا ما أنطقته به خبرته بعد أن اكتوى بنار السياسة و بلا خداعها ومكرها ، ولقى فيها من المزعجات والمكدرات ما نغصت عليه حياته ، ولازمته نحوسها حتى رقد رقدته الأخيرة ؛ بل امتدت إلى ما بعد الوفاة .

اقتحم السياسة يوم أن كان سيف الاستبداد الحميدى مسلولاً على الرقاب ، ومارسها بروح الشاب المخلص الثائر الذى لم يعد الحقيقة حين قال فى وصف نفسه :

تعوّدت ألّا أستنيم إلى المنى وألّا أرى إلا بهيئة ثائر

أو حين قال :

أبى الحق إلّا أن أقوم لأجله على الدهر فى كل المواطن ثائرا

وسار فيها بحريته وصراحته المعهودتين . فوقف لسياسة السلطان عبد الحميد بالمرصاد ، وحاربه حرباً مزيجاً من الأدب والسياسة لا هوادة فيها ، ونظم فيه قصائد تعذّر عليه نشرها فى البلاد العثمانية ، فكان يرسلها إلى مصر لتنشر فى المؤيد أو فى المقتبس أو فى غيرهما من الصحف . وكان لا يسكت عنه حتى حين ينظم فى مشاهد البؤس والشقاء كما رويت لكم من قصيدتيه « اليتيم فى العيد » و « السجن فى بغداد » .

أما القصائد التى أفردها لمعالجة الأمور السياسية فقصيدته (تنبيه النيام) التى يقول فيها :

أما أسد يحمى البلاد غضنفر فقد عاث فيها بالمظالم سيدها

وهى نار موقدة على طغيان عبد الحميد وجبروته . ومنها هذان البيتان :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها

وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

وقصيدته (رقية الصريع) :

يا عدل طال الانتظار فعجّل يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبل

كيف القرار على أمور حكومة حادت بهنّ عن الطريق الأمثل

أبت السياسة أن تدوم حكومة خصت برأى مقدس لم يسأل

أيكون ظل الله تارك حكمه المنصوص فى آى الكتاب المنزل

أم هل يكونُ خليفة لرسوله من حاد عن هدى النبى المرسل

وقصيدته (نحن فى بغداد) ومنها :

خضعنا لحكام تجور وقد حلا بأفواهها من مالنا مأكل سحت

وكم قامرتنا ساسة الأمر خدعة فتمّ علينا بالخداع لها الدست

لماذا نخاف الموت جبناً فلم نقم إلى الذب عنا من أمور هى الموت

وقصيدته (إيقاظ الرقود) التى صرح فيها باسم عبد الحميد :

سكنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمّر ما استطاعا

فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا

تولّى أمرها عبد الحميد

وفيها يتهكم به ، ويذكر النعيم المقيم فى قصره (يلدز) :

تنعم فى قصورك غير دار أعاش الناس أم هم فى بوار

فإنك لن تطالب باعتذار وهب أن الممالك فى دمار

أليس بناء « يلدز » بالمشيد

ولما زحف الجيش من سلانيك لقمع الحركة الرجعية فى الآستانة كان الرصافى هناك فدعاه مشهد زحفه المهيب إلى أن يصفه بقصيدة قال فيها :

شباب كالصوارم فى مضاء يرون وكالشموس منورينا
سلانيك الفتاة حوت ثراءً بهم فقضت عن الوطن الديونا

ولم يلبث أن تبع الجيش :

هنالك قمت مرتحلاً إليهم لأبصر ما أؤمّل أن يكونا

فرأى عند وصوله النصر المؤزَّر الذى حازه :

وظل الجيش جيش الله يشفى بحدٍّ سيوفه الداء الدفينا
وحطوا قصر « يلدز » عن سماء له فانحط أســـفل سافلينا
هوى عبد الحميـد به هوياً إلى درك الملوك الظالمينا

وأرسل سجيناً إلى سلانيك . حينئذ وقف شاعرنا على قصره يسائله :

لمن القصر لا يجيب سؤالى آهلات ربوعه أم خوالى
لم تصبه زلازل الأرض لـكن قد رمتـــه السماء بالزلزال
وكسته الأيام بالصمت لما نطقت فيه حادثات الليالى

ولشدة فرحه واغتباطه بنجاح الجيش ، ولأمله الـكبير فى هذا الانقلاب نظم قصيدة يثنى بها على الشهر ، الذى هوى فيه عبد الحميد من عرشه :

شهر به الناس قد أضحت محررة من رق من كان يقفو إثر جنكيزا
وإن تموز شهر قام فيـه لنا على اليفاع لواء العـــز مركوزا
قمنا على الملك الجبار نقرعه بالسيف منصلتاً والرمح مهزوزا
حتى تركناه فى هيجاء معضلة ألقت ضراماً على الطاغين مأزوزا

ونظم قصائد أخرى فى أغراض سياسية كثيرة كقصيدة « بعد الدستور » التى نظمها بعد سقوط الصدر (رئيس الوزراء) كامل باشا وفيها يقول :

تربع فى صدر الوزارة كامل ... فخطّ من النقصان فى وجهها حرفا
لقد أغضب الدستور فعلاً ونيـة ... ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
قد استوضحوه الأمر والأمر واضح ... فأعياه إيضاح الحقيقة فاستعفى
فيا أيها الصدر الجديد اتعظ به ... فإياك أن تطغى وأن تثنى العطفا

ولما التأم المجلس العمومى حياه بقصيدة قال فيها :

ماذا أقول وقد فزنا بمؤتمر ... فى جانبيه ترى الآراء تشتبك
قد أصبح الأمر شورى بيننا فيـه ... على الرعية لا يستأثر الملك
هذا الذى جاءنا الدين الحنيف به ... وحياً من الله مبعوثاً به الملك

ونشب خلاف شديد بين أرباب الصحف بالآستانة ، أدى إلى المهاترة والتراشق بالسباب . فشغلهم عن المصلحة العامة بالأمور الشخصية التافهة فلم يرقه منهم ما رأى ، وعاب عليهم خلافهم بقصيدة يلومهم فيها ويعنفهم ، ويهديهم إلى ما يجب أن تكون الصحافة عليه :

جرائد فى دار الخلافة أضرمت ... لهيب خلاف بينها غير خامد
وما الصحف إلّا أن تدور بنهجها ... مع الحق أنى دار بين المعاهد
ألا إن صحف القوم رائد نجحهم ... وما جاز فى حكم النهى كذب رائد

إلى هنا نرى الرصافى شاباً ثائراً ، وعثمانياً صميماً يذود عن حمى الانقلاب ، ويؤمل من ورائه للبلاد النفع الجم والخير العميم . ويطرى مآثر رجاله ، ويرى فيهم الذادة عن حياض الوطن ، والمنقذين من استبداد عبد الحميد وطغواه .

وبعد هذا الانقلاب رأى أيدى الاستعمار الغربى قد امتدت لتنتهيف بلاد « الرجل المريض » — كما كان الغرب الطامع يسمى الدولة العثمانية — وتنقضها من أطرافها ، وقد أنزلت بهذا المريض ألوان المحن وضروب النكال ، وأثارت عليه حروباً طاحنة ؛ فكانت الحرب الطرابلسية ، والحرب البلقانية ، والحرب العالمية الأولى فوقف الرصافى منها موقف العثمانى المخلص المتشدد فى عثمانيته ، والمسلم المتمسك

بإسلامه . فى الحرب الطرابلسية يهيب بالشرق ، ويدعوه إلى منازلة الغرب ، ويسخر من المدنية الغربية :

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب وقبّل غرار السيف واسل هوى الكتب
ولا تغترر أن قيل عصر تمدن فإن الذى قالوه من أكذب الكذب

ويحث أهل برقة وبنغازى ، ويستنهضهم للدفاع عن مواطنهم لئلا تطأها أقدام الغاصبين :

يعز علينا أهل برقة أنكم تدور عليكم بالدمار رحى الحرب
ويا أهل بنغازى سلام نقد قضت صوارمكم حق المواطن فى الذب

ثم ينحى باللائمة على ساسة الغرب وزعمائه .

أيا زعماء الغرب هل من دلالة لديكم على غير الخديعة والكذب
تقولون إن العصر عصر تمدن أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب

ويقول فى قصيدة أخرى :

لك الله يا قتلى طرابلس التى بها حكم الطليان أسيافهم غدرا
ومن مبكيات الدهر أو مضحكاته لدى الناس حر لم يكن خصمه حرا

ولما استولى البلغار على أدرنة فى الحرب البلقانية ، وهددوا عاصمة الدولة لم يستول عليه اليأس ، بل كان مؤمناً كل الإيمان بتغلب الجيش العثمانى وعودة أدرنة إلى أحضان الوطن . ولهذا قال :

أدرنة مهلاً فإن الظبى سترعى لك العهد والموثقا
وداعًا لمغناك زاهى الربا وداعًا ولكن إلى الملتقى

وتطغى النزعة الإسلامية عليه حادة عنيفة فيقول :

عزاء لمسجدك الجامع أفارق محرابه المنبرا
وهل فى مصلاّه من راكع يجيب المؤذن إن كبرا

فيالسقوطك من فاجع به فجع الدهر أم القرى
وقبر النبوة فى يثربا ومثوى ضجيعيه مثوى التقى
ومن فى البقيع ومن فى قبا ومن شهدوا الفتح والخندقا

ويتلطف بأدرنة ليخفف شيئا من جزعها على من أسلمها ليد الأعداء ، ويحاول أن يهدّىء ثائرها على ما نكبت به من الاحتلال ببشرى سارة يزفها إليها ، وهى رجوعها المحتم إلى حمى الوطن :

رويدًا أدرنة لا تجزعى وإن قد أمضّك هذا الأذى
إذا أنت بالسيف لم ترجعى فلا حبذا العيش لا حبذا
ألا أنت (ألزاسنا) فاسمعى ونحن الفرنسيس من بعد ذا
سلام على قطرك المجتبى سلام على أفقك المنتقى
أيمسى لشرك العدى ملعبا وكان لتوحيدنا معبقا

ولما دخلت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى استقبل النبأ بقصيدة قال فيها :

يا قوم إن العدى قد هاجموا الوطنا فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
إن لم تموتوا كراماً فى مواطنكم متّم أذلاّء فيها ميتة الجبنا

وهنا يتبدى لنا الرصافي الوطنى العثمانى المسلم مجاهدا بقلمه ، مناضلاً دون دولته الإسلامية وعلى رأسها خليفة رسول الله .

أما من الناحية الداخلية فلم يسكت عن التصريح بانتقاد مالا يتفق ونزعاته ، ولا يأتلف وغاياته . فلما رأى الاتحاديين يؤلفون الوزارات من غير رجالهم ، ويتخذون منهم آلات لتنفيذ مقاصدهم ، لم يستطع صبرا بل رفع شكواه إلى الدستور بهذه الصرخة المدوية .

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق

وأوضح فيها سلوك الاتحاديين وأعمالهم التى تخالف الدستور والعدل والحق :

ولم نستفد إلّا سقوط وزارة وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وماذا عسى يجدى سقوط وزارة إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق
وما الهمّ عندى بالذى قد ذكرته وإن كان يشجينى ويدعو إلى الزعق
ولكن وراء الستر كف خفية تزحزح من شاءت عن الحكم أو تبقى

كانت الخصومة بين الحزبين السياسيين حزب الاتحاد وحزب الائتلاف عنيفة جداً ، زهقت فيها نفوس ، وسالت من أجلها دماء . فكان يحز فى نفس الرصافى ألم محض من جراء ما أفضت إليه تلكم الخصومة . لأن الخسارة من كلا الحزبين هى خسارة الأمة العثمانية والوطن العثمانى ، وما أولئك القتلى والجرحى إلا أبناء وطن واحد ، وأمة واحدة فلم يكتم شعوره بل أعلنه قائلا :

أرى الأحزاب من طمع وحرص قد اخترقوا إلى الفتن السجافا
لئن خطأت من راموا « اتحاداً » فما صوبت من راموا « ائتلافا »
فإن مشارب العدوان منها كلا الحزبين يرتشف ارتشافا
وأنى يصلح الأوطان قوم بها أشتى تدابرهم وصافا

ولما قدمت الحكومة إلى مجلس النواب لائحة لتخصيص رواتب لأصهار البيت المالك العثمانى لم يقو على أن يكظم غيظه ، ولا أن يصبر على هذا التصرّف العجيب فصدع برأيه معلناً :

هم يعدون بالمئات ذكوراً وإناثاً لهم قصور مشاله
تركوا السعى والتكسب فى الدنيا وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكى أعين السعى من نعيم البطاله
يأكلون اللباب من كدّ قوم أعوزتهم سخينة من نخاله
نعموا فى غضارة الملك عيشاً وحملنا من دونهم أثقاله
فإذا ما صال العدوّ خرجنا دونهم للوغى نرد صياله
وإذا هم جرّوا الجرائر يوماً فعلينا تكون فيها الحماله

وإذا ما استهلّ فيهم وليد فعلينـــا رضاعه والـكفاله
حمّلونا سن عيشهم كل عبء ثم زادوا أصهارهم والـكلاله
فـكفينا أصهارهم مؤنة العيش فكانوا ضغثاً على إبّاله
تلك والله حالة يقشعر الحق منهـا وتشمئز العداله
ليس هذا فى مذهب الاشـــتراكية إلا من الأمور المحاله
وهى فى الملّة الحنيفية البيضـــاء كفر بربنا ذى الجلاله

ولما أسلمت وزارة أحمد مختار باشا الغازى الشيخ عبد العزيز شاويش إلى الحـكومة المصرية غضب عليها وقال يواسى الشيخ :

إنى عهدتك لا تـكون يؤوسا مهما لقيت مصائباً ونحوسا
كم قد صدمت النائبات بهمة جعلت لهـا الصبر الجميل لبوسا
غدروك ياعبـــد العزيز وإنما غدروا الشهامة فيك والناموسا
ما أســلموك إلى الخديو وإنما قد أسلموا شرفاً لهم قدموسا
ما هنت أنت ؛ وإنهم بفعالهم هانوا لدى أهل الحفاظ نفوسا

وبعد أن أعلنت الهدنة وسكتت مدافع الحرب العالمية الأولى بُعثت حزازات الصحافيين من مراقدها ، وثارت بينهم ثائرة الخصومة والخلاف . فلما رآهم قد تمادوا فى غيهم وصف حالهم المحزنة بقصيدة منها :

غدوا يتطاعنون بكل هجر من القول المخالف للشرافه
على حين العدوّ بهم محيط يذيقهم المذلّة والمخـــافه
كأنى إذا أراهم فى احتراب بملك يطلب الغرب انتسافه
أرى كبشين ينتطحان جهلاً لدى الجزار فى دار الضيافة

وكان لا يتأخر عن انتقاد ما يرى انتقاده لزاماً مما لا يروقه من الأمور ، إذا ما عرضت مناسبة ، وعنت فرصة . فإذا احترق « شراغان » أعظم القصور فخامة

فى الآستانة فوقف عليه ونظم فيه قصيدته البارعة ، لا يسكت عن لوم رئيس المجلس النيابى لسعيه فى اتخاذ هذا القصر الفخم ديواناً لمجلسه فأفضى إلى هذه الكارثة والخسارة التى لا تعوض :

أصبحت أعذل نواباً وأعيانا عذلا كنار تلظت فى شراغانا

وبعد ما أبدع ما شاء له من الإبداع فى وصف القصر ووصف الحريق الذى أتى عليه قال :

ويل لمرتئس قد قام مجتهداً يسعى بجعلك للنواب ديوانا
حتى إذا كنت للنواب مجتمعاً بانت عواقب ذاك السعى خسرانا
للنار فيك حسيس كنت أحسبه ضحكاً على من بسوء الرأى أبكانا
أشكو إلى الله قلباً لا يطاوعنى ألّا أكون على الأوطان غيرانا
ما بال نوابنا أمسوا نوائبنا إذ لا يبالون مكروهاً تغشانا
أما كفى أنهم لم يعملوا عملاً حتى أرادوا اجتماعاً فى شراغانا
هم يطلبون قصوراً ينعمون بها ونحن نطلب للأوطان عمرانا

ومع هذا الانتقاد الذى مر بنا كله ، فإنه حين احتل الإنكليز بغداد وكتب صديقه الشاعر التركى سليمان نظيف ، قصيدة يعاتب بها دجلة لأنها لم تمنع العدو من التوغل فى العراق ، وسمحت له باحتلال بغداد . أجابه الرصافى بقصيدة يعتذر بها على لسان دجلة ، ويثبت حنينها إلى عهدها الزائل ، ويضع شيئاً من اللوم على عاتق الدولة العثمانية :

نحت حتى رثى العدو لحالى واعترانى من العويل بحاح
أو ما تبصر اضطرابى إذا ما خفقت فى جوانبى الأرواح
أين أهل الحفاظ هل تركونى نهبة فى يد العدو وراحوا
أنا باق على الوفاء وإن كا نت بقلبى ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو بلّغيهم شكايتى يا رياح

ولما انتصر مصطفى كمال على اليونان جاشت شاعريته فأملت على قلمه قصيدة رفعها (إلى بطل الشرق الأكبر) منها :

سمىَّ المصطفى لا زلت تعلو إلى أوج يطاول كل أوج
فدر كالشمس فى فلك المعالى وحلَّ من الكمال بكل برج
نصرت على بنى يونان نصراً أقام الغرب فى هرج ومرج
وما اليونان كفؤك فى نزال وإن ملأوا السهول وكل فج
ولكن قد غلبت جيوش قوم أذلوا بالبوارج كل لج
تركت جيوشهم من فرط رعب تعاهد للهزيمة كل نهج

هذا ما يتعلق بسياسته التى كان يعتنقها بصفة كونه وطنيا عثمانياً ، ومسلماً صميما . أما موقفه من السياسة العربية فأدعه إلى المحاضرة التى أفردتها لهذه السياسة .

* * *

كان الرصافى يرى تكالب الغرب المستعمر على بلاد الدولة العثمانية التى يسميها « الرجل المريض » ، ويريد أن يتعجل فيقتسم ملكه فى حياته ، أو يحاول أن يجهز عليه فيفوز بتركته . وها هى ذى إنكلترة وفرنسة وإيطالية ودول البلقان قد استأثرت كل منها بقطر أو أكثر من ملك هذا الرجل المريض ، فكان شديد الحذر من الغربيين ، يحذر الدولة العثمانية وشعوبها منهم ومن دسائسهم ومكايدهم فيقول مثلا :

ألست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب

ويقول :

يقولون إن العصر عصر تمدن فما باله أمسى عن الحق مزورا
إلى الله أشكو فى الورى جاهلية يعدُّون فيها من تمدنهم عصرا
أتتنا بثوب العلم تمشى تبختراً إلى الخير لكن قد تأبطت الشرا

ويقول :

لـكنّ باريز ما زالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم جيش يدكّ من الشام الأهاضيبا

ثم أتت الحرب العالمية الأولى فحققت مخاوفه كلها ، ومزق الغرب المستعمر أديم الدولة العثمانية فانفصل عنها الحجاز ، واحتلت فرنسة سورية ، واحتلت إنكلترة العراق وفلسطين فزاد حنقه على الغرب ، إذ تحقق لديه أن ما يتشدق به المستعمرون ، إن هو إلا أحابيل يصطادون بها فرائسهم ، وأن ترديدهم ألفاظ الحق والعدل وتحرير الشعوب ، ما هى إلّا أكاذيب يلقيها على أفواههم جشعهم الاستعمارى ، يخدرون بها أعصاب الأمم المستضعفة ليستولوا عليها .

أرى الحق لم يغش البلاد وإنما مشى ضاربًا فى الأرض تلفظه الطرق
ومن عجب أن الورى يدّعونه وهم من قديم الدهر أعداؤه الزرق
أعدّوا له فى البر والبحر قوةً إذا ظهرت ينسد من دونها الأفق
وطاروا بطياراتهم يمطرونه قذائف من نار كما أمطر الودق
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعى بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الأسير وإنما أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى وأعلن الرئيس ولسن مبادئه فاستبشر الناس وتلقوها بقلوب مفعمة بالآمال الإنسانية ، ثم غاضت تلكم المبادىء فغاضت آمال الأمم ، نظم فى الرئيس ولسن قصيدة جاء فيها :

قال قولا به استحق احتراما وتعداه فاستحق ملاما
شام منه الورى بوارق غيم من وراء البحر المحيط ترامى
فتصدى لغيثه كل قوم قد شكوا غلة بهم وأواما
ثم خابت ظنونهم فيه لما مرّ فى الجو خلبا وجهاما

وفيها يخاطب المجلس الرباعى الذى انعقد لاقتسام أسلاب الحرب وغنائمها :

أيها المجلس الرباعى مهلاً فلقد جرت فى الأمور احتكاما
أنت سكران خمرة النصر فاحذر حين تصحو ندامة ولواما
لك عين ترى السها فى الدياجى وعن الشمس فى الضحى تتعامى

فلما جاء إلى العراق خاض معمعان السياسة ، وصار يسجل كل حادثة سياسية تمر به فكانت تشرئب الأعناق إلى ما ينظم وترهف إليه الأسماع ، وتتلقفه الألسن والأقلام ، منها قصيدته التى يصف بها « الحرية فى سياسة المستعمرين » :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّم
وتثبتوا فى جهلكم فالشر أن تتعلموا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرّم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة إلا الأصمّ الأبكم

ويسخر من حكومة الانتداب فيصورها غادة محجبة ترفل فى الفاخر من الثياب وتزدان بالثمين من الحلىّ ، حتى فتنت الناظرين بمظهرها :

قال جليسى يوم مرت بنا من هذه الغادة ذات الحجاب
قلت له : تلك لأوطاننا حكومة جاد بها الانتداب
نحسبها حسناء من زيّها وماسوى (جنبول) تحت الثياب

ومن القصائد التى نظمها فى هذا المعنى ، قصيدته التى قال فيها يخاطب الوزراء :

بالله يا وزراءنا ما بالكم إن نحن جادلناكم لم تنصفوا
وكأن واحدكم لفرط غروره ثمل تميل بجانبيه القرقف
هذى كراسىّ الوزارة تحتكم كادت لفرط حيائها تتقصف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كل بسلطته عليكم مشرف

ولما تبين له عبث المستعمرين ، على ما بيننا و بينهم من عهود التحالف ومواثيقه قال :

نقض القوم عهدكم قبل هذا واستخفوا بحفظه فى صوان
واستهانوا بالوعد إذ أخلفوه واستغلوا دفائن الأوطان
وأقاموا بها قواعد جوّ لاحتشاد الجنود والطيران
ثم ساروا بحكمها سير فلك هم بها آخذون بالسكان
كل هذا وأنتم مستقلو ن بزعم من عندهم وامتنان

إلى غير هذا من الشعر الذى أعرب به عما يجيش فى نفس كل مخلص لأمته ووطنه ضد الاستعمار ونظامه البغيض .

فى الحياة النيابية :

ليس لدىّ من المراجع ما يوضّح لى موقف الرصافى عند ما كان نائباً فى مجلس النواب العثمانى ، ولكننى أستطيع أن أدعى أنه لم يكن من الفريق الصامت فيه مستنتجا دعواى هذه من بيتين هجا بهما « جاهلا متكبرًا » وهما :

وشامخ الأنف ما ينفك مكتسيًا ثوب التكبر فى بحبوحة النادى
قد لازم الصمت عيًا فى مجالسه كأنما هو من نواب بغداد

والرصافى من نواب المنتفق لا نواب بغداد .

أما فى العراق فإن لى عليه كل الاطلاع والوقوف . وقد رأيت أن أختار لكم خطبتين من خطبه إحداهما تمثل نزعته السياسية ، والثانية تمثل نزعته الخلقية .

(١) المعاهدة :

الخطبة الأولى هى التى ألقاها يوم تصديق المعاهدة العراقية — الإنكليزية سنة ١٩٣٠ . ونحن إذا نظرنا إلى فكرة المعاهدة رأيناها ترجع إلى

سنة ١٩٢٢ ، عند ما عقدت أول معاهدة بين العراق والإنكليز وهى التى استقبلها الرصافى بأبيات منها :

نشروا المعاهدة التى فى طيّها قيد يعض بأرجل الآمال
قد أبلعونا حبة استعبادنا لكن مموهة بالاستقلال
والعهد بين الإنكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال

و بأبيات منها :

وليس الإنكليز بمنقذينا وإن كتبت لنا منهم عهود
متى شفق القوى على ضعيف وكيف يعاهد الخرفان سيد
ولكن نحن فى يدهم أسارى وما كتبوه من عهد قيود

وقد صدقها المجلس التأسيسى العراقى سنة ١٩٢٤ . أما المعاهدة التى ألقى الرصافى يوم تصديقها هذه الخطبة ، فهى معاهدة ١٩٣٠ التى جيء بها لتنهى انتداب الإنكليز ، وتنيل العراق استقلاله ، وتدخله بعد تصديقها فى عصبة الأمم . قال :

« . . . كلنا يرمى إلى غاية واحدة هى سعادة البلاد ، وإذا اختلفنا فى الرأى فهذا الاختلاف ناشىء من وجهة النظر والاجتهاد فقط . . . فالذى يبت فى الأمر عن اجتهاد يجب أن يحترم ، ولكن الويل كل الويل لمن يبت فى الأمر عن تقليد .

وألفت أنظاركم إلى . . . فكرة المعاهدة من أين نشأت . . . على أثر تأليف الحكومة العراقية الموقتة كان الشعب العراقى يمقُت الانتداب أشد المقت بحيث إن جميع طبقات الشعب . . . يلهجون بكلمة واحدة هى : لا نريد الانتداب . فلما رأى القابضون على زمام السياسة فى البلاد أن الرأى العام العراقى بهذه المثابة أرادوا أن يأتوا الشعب من طريق المخادعة ، فقالوا لهم نترك الانتداب ونأتيكم بمعاهدة فأفرغوا صك الانتداب بشكل معاهدة وجاءوا بها . . . والآن جاءتنا

المعاهدة الجديدة تقول بأنها ترفع الانتداب عنا . وتجعلنا أمة مستقلة بعد دخولنا عصبة الأمم .

نعم ؛ هذا صحيح إذا كانت ترفع الانتداب وتجعل الشعب مستقلاً ، ولكن أرى أن هذه المعاهدة تشترك مع المعاهدات السابقة فى ثلاثة أمور .

الأول — إن المعاهدة يجب قبل كل شىء أن تستند إلى قوة لتكون ذات قيمة ؛ فقيمة كل معاهدة تساوى قوة عاقدها . وبالنظر إلى هذه الحقيقة تكون معاهدتنا مع بريطانية كمعاهدة الحمل والذئب .

الثانى — المعاهدات كلها تقوم على أساس تبادل المنافع ، وإلا كانت ضرباً من ضروب اغتصاب البرىء والتسخير . وكلما نظرت فى المعاهدات السابقة وفى هذه المعاهدة لم أجد إلا منافع لبريطانية .

الثالث — نحن فى عقد هذه المعاهدات لسنا على اختيار بل على اضطرار . كلنا نعلم أن العراق فى قبضة بريطانية الحديدية أو النارية ، وأن الإنكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة . ففى هذا الوضع نعقد مع الإنكليز معاهدة بمعنى أنهم يملون علينا ونحن نكتب . ولا أعرف مامبلغ معاهدة تعقد بهذه الصورة من الصحة !

نعم ؛ هذه المعاهدة تخالف المعاهدات السابقة فى شىء واحد وهو أن المعاهدات السابقة رفعت اسم الانتداب تجاه العراقيين فقط . أما تجاه الغرب ، فالإنكليز يعاملون العراق بصورة الحكومة المنتدبة عليه ، ولكن التمويه فى هذه المعاهدة لا يرفع الانتداب تجاه العراقيين فقط ، بل تجاه أمم الغرب أيضاً ؛ وذلك بدخول العراق فى عصبة الأمم بين الدول المستقلة .

إن المفاوضات جرت على أساس دخولنا فى عصبة الأمم بلا قيد ولا شرط .

أقول : إذا دخلنا عصبة الأمم وبيدنا هذه المعاهدة فإننا لا نكون مستقلين حتى ولو دخلنا قدس الأقداس ، وملكوت السماء . . . ثم إن هذه المعاهدة لا تنفذ

إلا بعد دخولنا عصبة الأمم ، ودخولنا فيها لا يكون إلا سنة ١٩٣٢ ، فما هذه العجلة ؟ ولماذا نمضى المعاهدة قبل سنتين من تنفيذها ؟ فلنتبصّر ولنتريث » .

(ب) حرية الصحافة :

والثانية خطبته عند ما أقدمت الحكومة على تعديل قانون المطبوعات فقال :

« يفهم مما توخته الحكومة من هذا التعديل ، ومما قاله الخطباء فى هذه الجلسة أن الصحافة مريضة ، وأنها محتاجة إلى الدواء الشافى ، فى الحال الحاضر ، وأن الوزارة الحاضرة جاءت تطلب الشفاء لهذا المريض من طريق واحد ، وهو تحميل هذا المريض بقيود أخرى غير القيود السابقة . ولكن هذه الطريقة . أو هذا الدواء لم يكن دواءً شافياً ، وأن المريض لم يزل مريضاً . إذن ماهو الدواء الناجع ؟

أما أنا فأقول كما يقول الشاعر : « إنما الحيلة فى ترك الحيل » أقول : جربنا هذه الطريقة فلم تنجح فلنطلق الصحافة ولا نقيدها إلا بالمحاكم ، ونقول لها : افعلى ماشئت . لعل هذه الطريقة تنجح !

يقال : إن الصحافة تشتم الناس . أظن أنه لا يوجد واحد شتمته الصحف أزيد منى . ومع ذلك فأنا أشكر الصحف التى شتمتنى ، إذا كانت لا تقصد من ذلك إلا المصلحة العامة . وإذا كنت أغتاظ لشخصى من الشتم ، فتوجد محاكم أراجعها وأشكو عندها وهى تقضى لى حسب القوانين الموضوعة . . أقول : على الحكومة أن تسحب هذه اللائحة وتأتى بلائحة تعديل أخرى ترفع القيود عن الصحافة » .

الدعوة إلى السلام :

نسمع فى هذه الآونة دعوة إلى السلام يبثها المعسكران المتخاصمان فى العالم كلاهما . لو كان الرصافى حياً لكان من أنصارها ومؤيديها لمجرد كونها دعوة إلى السلام ، وهو من دعاة هذه الفكرة بحكم طبعه وبيئته وإيمانه . فقد طبع على الإيثار وحب الخير للناس ، ونشأ فى بلدة من أسمائها « مدينة السلام » ، وآمن بدين تحيته « السلام عليكم » . ولأنه ينظر إلى العالم نظرة إنسانية محضة بحكم اعتقاده بوحدة الوجود . وقد مرّت بنا أمثلة من شعره — وغيرها كثير — تدل دلالة واضحة على أنه لم يبالغ حين وصف نفسه بأنه « يشارك الناس طراً فى بلاياها » . فاذا مادعا إلى السلام فليست دعوته بالأمر الغريب .

اسمعوه يسائل « المجرة » ويشكو إليها مافى الأرض من خلاف أنكره ، ومن تضارب فى الخلق والعقيدة .

فيا أم النجـــوم وأنت أم أيولد فيـــك كالأرض البنونا ؟
وهل بك مثل هذى الأرض أرض وفيها مثلنا متخالفونا ؟
وهل هم مثلنا خلقاً وخلقاً هناك فيأكلون ويشربونا ؟
وهل هم فى الديانة من خلاف نصارى أو يهود ومسلمونا ؟
وهل طابت حياة بنيك عيشاً ؟ ففوق الأرض نحن معذبونا .

واسمعوه كيف يعبر عن شعوره تجاه الناس .

أنا والله لا أريد بأن أو قع شراً ولو على من يعـــادى
إن لى إن سمعت أنة محـــزو ن أنيفا مرجّعاً فى فـــؤادى
إن نفسى عن همها ذات شـغل بهموم العباد كل العبـــاد
لا أحبَّ النسيم إلا إذا هـــبَّ على كل حاضر أو باد

وإذا ما رأيناه قد حرض على الحرب ودعا إلى امتشاق الحسام ، فإن الظروف التى أحاطت به هى التى أنطقته بذلكم الشعر ، الذى ما قاله إلا ليستنهض الأمة لاستعادة مجدها ، أو ليشجعها على الدفاع عن كيان البلاد من غارات الأعداء . فمن دعوته إلى السلام قوله :

إذا دفع الشر القبيح بمثله تحصّل شرٌّ ثالث وتولّدا
وأمست دواعى الشر ذات تسلسل مديد وصار الشر فى الناس سرمدا
فما الرأى عندى إن تمخضت الوغى سوى أن يظل السيف فى الغمد مغمدا
وأن تجمع الدنيا على ردّ طامع أشار إلى أسيافه متهدّدا
فإن كان هذا فى العصور التى خلت عسيراً ففى هذا الزمان تمهدا
فإن جميع الأرض أمست كبلدة بها كل جمع عدّ فى الحكم مفردا

وهو رأى كان يؤمن به ويعتقد ، وشعور تكون عنده من نظرته المخلصة المستقيمة إلى الإنسانية التى يراها سائرة نحو تحقيق التآخى بين الأمم والشعوب ، ومقدمة على نبذ الفروق التى أوجدتها السياسة الاستعمارية الغشوم لنيل أوطارها ولباناتها . وما الحرب العالمية الثانية التى عمت الدنيا مصائبها ، إلا مرحلة لابد للإنسانية من أن تجتازها فى طريقها إلى مقصدها الشريف ، وهدفها السامى . وما هذه الدماء التى طلت فيها إلا تباشير لصبح الإنسانية المرتقب .

نسمع اليوم للخطوب أزيزاً كأزيز القدور فى الفوران
إننى مبصر تباشير صبح مستفيض على ظلام الأمانى
ليس تلك الدماء فى الحرب إلّا شفقاً من ضيائه الأرجوانى
إننى أستشف من غير الدهر انقلاباً يعمّ كل مكان
وسيغدوا الضعيف محترم الحقّ ويمسى الظلوم فى خسران
فيبوء المستعمرون بخسر وتضىء البلاد بالعمران

وقال مؤملا خيراً من عواقب هذه الحرب التى تمخطاها الإنسانية إلى حيث الحرية والانعتاق :

ويمسى الهند عندئذ طليقاً من الأسر الذى قطع الوتينا
فبشرى للبلاد إذن وبشرى لمصر وللعراق بما هوينا
فسوف تكف عنهن الليالى مطامع ساسة متحكمينا

وإذا نالت كل أمة مبتغاها ، وفازت باستقلالها ، ونعمت بحريتها فإنه :

هنالك حفرة الأطماع يمسى خداع (الإنكليز) بها دفينا
وتحتدم الحفائظ فى البرايا فتضرم فوق مدفنه أتونا
وتتسع السياسة للتصافى فيستصفى الخدين بها الخدينا
ويصبح كل تمويه وغش لأنظار البرية مستبينا
ويصبح كل شعب مستقلاً عزيزاً لن يذلّ ولن يهونا
ويمسى الناس قاطبة سواءً بدين أخوّة متدينينا
يعاون بعضهم بعضاً ويؤوى قويهم الضعيف المستكينا
تسير بهم شرائع عادلات إلى أوج السعادة مرتقينا
جميعاً لا يفرقهم لسان ولا دين به يتعبدونا
ويصبح كل محترث مشاعاً لمن فيه ثووا متوطنينا

إن الدعوة إلى السلام إذن فكرة متأصلة فى نفسه . ودونكم أبياتاً تسمعون منها دعوته صريحة واضحة نادى بها منذ عهد الشباب والفتوة :

قضت المطامع أن نطيل جدالا وأبين إلا باطلا ومحالا
فى كل يوم للمطامع ثورة باسم السياسة تستجيش قتالا
ما ضرّ من ساسوا البلاد لو أنهم كانوا على طلب الوفاق عيالا
أمن السياسة أن يقتل بعضنا بعضاً ليدرك غيرنا الآمالا
لا در در أولى السياسة إنهم قتلوا الرجال ويتموا الأطفالا
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها بدم هريق على الثرى سيالا
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها سبقت ولا ترة ولا أذحالا

ثم يلتفت إلى الساسة فيقول :

أبنى السياسة إن سلكتم بالورى طرق الرشاد فعلموا الجهالا
إن جرّت الحرب الكمال لأمة فالعلم أحرى أن يجرّ كمالا
إن الحياة كثيرة أعمالها فدعوا الأنام وحاربوا الأعمالا
وتقحموا حرب الحياة فإنها للحرّ أضيق مأزقاً ومجالا
واستلئموا زرد الوفاق وأشرعوا فيها تعاونكم قناً ونصالا
واقنوا لكم بيض المساعى شزباً تجرى رعالا للمنى فرعالا
واعلوا على صهواتهن روا كضاً للمكرمات تسابق الآجالا
ودعوا صيالاً فى الملاحم إن فى هذى الحياة ملاحماً وصيالا
أو كلما طمع القوىّ شراهة أكل الضعيف تحيفاً واغتالا

استنهاضه الأمة

فتح الرصافى عينيه فى بيئة متأخرة فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فشق عليه أن تعيش أمته متخلفة عن مواكب الحضارة والرقى فوقف منها كما قال :

مستنهضاً بالشعر قومى للعلا إذ كان فيهم فترة وربوض

وأخذ ينعى عليها أن ألفت الخمول ، ويعيب عليها أن حالفت الجمود ، فنظم فى استنهاضها قصائد كثيرة فيها شدة وفيها عنف ، إذ لم ير غير هذا الأسلوب كفيلا بإيقاظها من سباتها العميق .

لقد رأينا موقفه منها فى السياسة ، وكيف استمر « يهتف بالنشيد » حتى « أعياه إيقاظ الرقود » وكاد يستولى عليه اليأس والقنوط :

أطلت وكاد يعيينى الكلام ملاماً دون وقعته الحسام
فما انتبهوا ولا نفع الملام كأن القوم أطفال نيام
تهزّ من الجهالة فى مهود

أما الجهل عدو الإنسانية الأزرق الذى يقول فيه :

إذا ما الجهل خيّم فى بلاد رأيت أسودها مسخت قرودا

فقد حجب عنهم وجه الصواب ، وأعماهم عن أن يهتدوا إلى الصراط السوى .

لقد ساءه أن يرى أمته تتخبط فى دياجير الجهل كما ساءه أن يراها مستسلمة لاستبداد عبد الحميد وجبروته . إذن فأفضل وسيلة لإنهاضها ، هو نشر العلم الذى بهر بمعجزاته العقول ، ورفع شأن أمم الغرب فأعلى مكانتها فى الحياة حتى :

علت أمة الغرب السماء وأشرفت علينا فظللنا ننظر القوم من تحت

وأخذ يحثها على طلب العلم لتجارى الزمان فى تطوره وتقلبه :

لعمرك إن الدهر يجرى لغاية فإن شئت أن تحيا سعيداً فجاره
لقد فاز من بارى جديديه جدة وخاب الذى فى جدة لم يباره

فنظم كثيراً فى الحث على طلب العلم وافتن فى أساليب نظمه . ومما قال :

أيها الناس إن ذا العصر عصر العـ ـلم والجد فى العـلا والجهاد
عصر حكم البخار والكهربائيّـ ـة و « الماكنات » والمنطاد
فاض فيض العلوم بالرغم ممن ضربوا دونهن بالأسـداد
إن للعـلم دولة خضعت دو ن علاها عوالم الأضـداد
لا تسابق فى حلبة العزّ ذا العـلم فما للهجين شأو الجواد

ومنـه :

أيها السابح فى بحر الفنون غائصاً فى لجهـا الملتطم
أنت والله على رغم المنون ذو وجود قاتل للعـدم
قرنك الحاضر من أرقى القرون خضع السيف به للقـلم
فإذا شـئت بلوغ الأدب فاغترف من بحره وارتشف
فالمعالى أودعت فى الـكتب كاللآلى أودعت فى الصدف

ومنـه :

يقولون لى استنهض إلى العلم قومنا بشعر معانيه تقيم وتقعـد
أما علموا أن الحيـاة بعصرنا مدارس فى كل البلاد تشيد
فيا قومنا إن العـلوم تجدّدت فإن كنتم تهوونها فتجددوا

وقد تغلبه الحماسة ، ويفيض عليه فيض الفخر فيصدع بقوله :

نحن قوم نرى المفاخر إلاّ من طريق العلوم ثوباً معارا
ما قصدنا بسلنا السيف إلاّ ردّ ليل الجهل المميت نهارا
هل شددنا الرحال فى الأرض للأسفار إلا لنـكتب الأسفارا ؟
كم طوينا من قبل فى طلب العـ ـلم فجاجاً وكم شققنا بحارا

وهذا البخار الذى قلب حياة الإنسان ! إن لعصره لفخراً على ما سلف من العصور :

تعاليت يا عصر البخار مفضلا على كل عصر قد قضى أهله نحبا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجز بها آمن السيف الذى كذب الكتبا
فكل بلاد جادها العلم أمرعت رباها وصارت تنبت العز لا العشبا
متى ينشىء الشرق الذى اغبر افقه سحابة علم تمطر الشرف العذبا
فإن دبور الذل ألوت بعزه وكادت سموم الجهل تحرقه جدبا

أجل ؛ إنه كان يتمنى أن تعم الشرق نهضة تعيد إليه سابق عزه ، وسالف مجده ، وأن ينحو فى الحياة منحى صحيحاً فلا يدع الغرب يتحكم فى مصائره ومقدراته :

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض فقد طال نوم القوم بين دياره
ألم تر أن الغرب أصلت سيفه عليهم وهم لاهون تحت غراره
أما آن للساهين أن يأبهوا له وقد أصبحوا فى قبضة من إساره

وكان إذا ما استنهض قومه لطلب العلم اتخذ من أسلافهم حافزاً لهم ومشجعاً :

ألم تك قبلنا الأجداد تبنى بناءً للعلوم بكل فن
لماذا نحن يا أسرى التأنى أخذنا بالتقهقر والتدنى
وصرنا عاجزين عن الصعود

وقد اختار من أولئك الأسلاف أبا بكر الرازى ، أحد من خدموا العلم أجل خدمة ، فنظم فى سيرته قصيدة قال فى مطلعها :

ألا لفتة منا إلى الزمن الخالى فنغبط من أسلافنا كل مفضال
تلونا أناساً فى الزمن تقدموا وكم عبرة فيمن تقدم للتالى
ألا فاذكروا ياقوم أربع مجدكم فقد درست إلاّ بقية أطلال
تطلبتمو صفو الحياة وأنتمو بجهل وهل تصفو الحياة لجهال !

وليس همه من ذكر الأسلاف أن يقف عند الفخر بهم ، والثناء على أعمالهم والتغنى بمآثرهم .

ولست ادّكر الماضين مفتخراً لكن أقيم بهم ذكرى لمدكر

من أجل هذه الذكرى وحدها كان يتحدث عن الماضين ، ويطوى مفاخرهم ليتخذ الخلف منهم أسوة حسنة . أما إذا أردت أن تقف على رأيه فيما يجب أن نسلك نحن فى حياتنا فإنه لا يتردد فى أن يجيبك :

وما يجدى افتخارك بالأوالى ... إذا لم تفتخر فخراً جديدا
أرى مستقبل الأيام أولى ... بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع ... يردد فى غد نظراً سديدا
وهل إن كان حاضرنا شقيا ... نسود بكون ماضينا سعيدا ؟

والعلم الذى يحث على طلبه ، لا يريده إلا إذا كانت الأخلاق ردءًا له .

وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى ... ولكن تزوغ العين عند انكساره
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً ... وإن كان بحراً زاخراً من بحاره

ويقول :

أرى العلم كالمرآة يصدأ وجهه ... وليس سوى حسن الخلائق من جال
أخو العلم لا يغلو على سوء خلقه ... وذو الجهل إن أخلاقه حسنت غال
ولو وازن العلم الجبال ولم يكن ... له حسن خلق لم يزن وزن مثقال
وإن المساوى — وهى فى خلق عالم — ... لأقبح منها وهى فى خلق جهال

فإذا ما ارتوت البلاد بفيض العلم فقوى ضعيفها ، واقتدر عاجزها فلا بد من أن يكون ذلك العلم قد لابس حسن الأخلاق .

إذا ما العلم لابس حسن خلق ... فرجّ لأهله خيرًا كثيرا
وما إن فاز أغزرنا علوماً ... ولكن فاز أسلمنا ضميرا

ويقف يوماً فى الروض يصف أزهاره الناضرة ، وفوارته المتدفقة فيرى شبهاً بين الزهور فى الأكمام والعلوم فى الصدور :

إن الزهور تكنهن براعم ... مثل العلوم تجنهن صدور
وتضوّع النفحات منها مثله ... تبيينها للناس والتقرير

و بتلك قلب الجهل مصدوع كما ثوب الهموم بهذه مطرور
والزهر ينبته السحاب بمائه كالعلم ينبت غرسه التفكير
إن كان هذا فى الحدائق بهجة يزهو فذلك فى النهى تنوير
أو كان هذا لا يدوم فإن ذا ليدوم ما دامت تكرّ عصور

ولشغفه الشديد فى العلم ، ولاعتقاده أنه العلة الوحيدة لإنهاض الأمم ، وتقدم الشعوب ، وقف على أطلاله باكياً منتحباً غير عابىء بلائم يلوم أو عاذل يعذل . فتبديد الدمع هيّن ميسور لمن نذر أن يبدد دمه من أجل هذا التراث الجليل :

وأطلال علم لا تزال شواخصاً تذكر بالعهد القديم وتشهد
أراها فأبكى وهى رهن يد البلى بدمع كما ارفض الجمان المنضد
وما أنا سالٍ عهدها حين لم تسل دموعى ولكنى امرؤ متجلد
فإن تكبروا تبديد دمعى لأجلها فإن دمى من أجلها سيبدد

ومن هذه الأطلال المدرسة النظامية التى عبر عن شكاتها بقوله :

قوّض الدهر بالخراب عمادى ورمتنى يداه بالأنكاد
كم أنادى وليس لى من مجيب واضياعاه جهرة كم أنادى
ضعضع الدهر من بنائى أركا نا شداداً طالت على الأطواد
طالما رفرفت من العلم رايا ت فخار منى على بغداد
أهل بغداد هل ترق قلوب منكم راعها انقضاض عمادى
رق حتى قلب الجماد لفقدى فلتكونن قلوبكم من جماد

وهو يجلّ المعلم ويحترمه ، لأنه الواسطة لنشر العلم والمعرفة .

فلو قيل من يستنهض الناس للعلا إذا ساء محياهم ؟ لقلت : المعلم
معلم أبناء البلاد طبيبهم يداوى سقام الجهل والجهل مسقم
وما هو إلا كوكب فى سمائهم به يهتدى السارى إلى المجد منهم
فلا تبخسن حق المعلم إنه عظيم كحق الوالدين وأعظم

فإن له منك الحجا وهو جوهر وللوالدين العظم واللحم والدم

ويدعو إلى التخصص فى العلم ، وينصح المتعلم ألّا يدرس إلاّ ما تميل إليه نفسه وتشتهيه :

وإذا رمت فى التعـــلم حذقاً فاترك النفس والذى هى ترمى
واجتنب قسرها على ما أبته أن قسر الطباع أكبر ظلم
ليس فى أرؤس الرجال دماغ هاضم فى ذكائه كل عـــلم
حسن فهم الأخصّ أكثر نفعاً لذويه من قبح فهم الأعم
كن قوياً فى كل ما تدّعيه إنما الفوز للقـــوىّ المِلَمّ

المرأة

إن الجهل الذى سعى الرصافى لتبديد غاشيته كان يعم المجتمع ، و يشمله بنصفيه المرأة والرجل ، و إن العلم الذى استنهض الأمة وحثها على طلبه كان يريده لهذين النصفين كليهما ، و إلا فالإصلاح المنشود لا يتم :

من أين ينهض قائماً من نصفه يشكو السقام بفالج مقوصبا ؟ !

رأى المرأة العراقية على اختلاف قومياتها وتباين معتقداتها ، قد شاركت الرجل فى الجهل والتأخر ، وزادت عليه بكونها محتقرة على ضعفها ، منبوذة على امتهانها ، تعانى آلام محبسيها — دارها وحجابها :

ما أهون الأنثى على ذكرانها فلقد شجانى ذلّها وخضوعها

ضعفت فحجتها البكاء لخصمها وسلاحها عند الدفاع دموعها

و إذا سألته عن المرأة المسلمة أجابك :

لم أر بين الناس ذا مظلمه أحق بالرحمة من مسلمه

منقوصة حتى بميراثها محجوبة حتى عن المكرمه

قد جعلوا الجهل صواناً لها من كل ما يدعو إلى المأثمه

والعلم أعلى رتبة عندهم من أن تلقّاه وأن تعلمه

فدعا إلى تحرير المرأة من الرق الذى ترسف فى قيوده ، ودعا إلى تثقيفها وسفورها . فالمرأة أهم عنصر فى تربية النشء وتهذيبهم ، وأفضل وسيلة لإعدادهم إعداداً صالحاً للحياة :

ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات

وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخلاق النساء الوالدات

وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات

وكان القوم يظلمون المرأة فيصفونها بصفات يزعمون أنها تحول دون تحررها وتثقيفها ، فيرد عليهم و يفند مزاعمهم كلها :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الذين على اللواتى
وقالوا إن معنى العلم شىء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا الجاهلات أعف نفساً عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات
أليس العلم فى الإسلام فرضاً على أبنائه وعلى البنات
وكانت أمنا فى العلم بحراً تحلّ لسائليها المشكلات

و يستشهد بما عرفت به نساؤنا السالفات ، وما كنّ يقمن به من أعمال باهرة يشاركن بها الرجال :

ألم نر فى الحسان الغيد قبلاً أوانس كاتبات شاعرات
وقد كانت نساء القوم قدماً يرحن إلى الحروب مع الغزاة
يكنّ لهم على الأعداء عوناً ويضمِدن الجروح الداميات

ويحزنه أن يرى تحكم الرجل فى المرأة ، واعتداءه على حريتها ، فلا يرى فرقاً بين عمله هذا فى عصر النور والحضارة و بين وأد البنات فى الجاهلية :

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا جميع نسائنا قبل الممات
حجبناهن عن طلب المعالى فعشن بجهلهن مهتكات
وما ضرّ العفيفة كشف وجه بدا بين الأعفاء الاباة

ثم ينظر إلى الأعراب وهم فى فلواتهم و بواديهم ، حيث يعيش الرجال والنساء مجتمعين مختلطين فيفضل أخلاقهم وهم الجفاة على أخلاق المتحضرين :

فدى لخلائق الأعراب نفسى وإن وصفوا لدينا بالجفاة
فكم برزت بحيهم الغوانى حواسر غير ما متريبات

وكم خشف بمربعهم وظبى يمر مع الجداية والمهاة
ولولا الجهل ثم لقلت مرحى لمن ألفوا البداوة فى الفلاة

ورأى القوم ببغداد حين يمثلون رواياتهم ، ينقصهم عنصر المرأة فيختارون شاباً يسندون إليه أدوارها فيجتهد هذا الشاب أن يتشبه بالمرأة فيتزيا بزيها ، ويتكلف الظهور بمظهرها ، ويتصنع محاكاتها فى الحديث والتثنى والأنوثة ، فيفجؤهم الرصافى بقوله :

وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثل حالى عزة وإباء
ولكن عاراً أن تزيا رجالكم على مسرح التمثيل زى نساء

وينتقد أهل الشرق ، ويلومهم على موقفهم من المرأة :

لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا عليهنّ فى حبس وطول ثواء
وقد ألزموهنّ الحجاب وأنكروا عليهنّ إلا خَرجة بغطاء
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم يغارون من نور به وهواء
قد انتبذوا عنهن فى العيش جانبا فما هن فى أمر من الخلطاء

ويعزو رضوخهم لحكم الأجنبى ، واستسلامهم لعسفه وجوره إلى إهانتهم النساء :

ولو أنهم أبقوا لهن كرامة لكانوا بما أبقوا من الكرماء
ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم على الذل شبوا فى حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء

ووجه إلى صاحبة مجلة « الخدر » ، قصيدة ضمنها شكواه من جور الرجال على النساء :

شكوت إلى رب السموات أرضه وما الأرض إلا من سمواته السبع
فقد جار فى الأرض البسيطة خلقه على خلقه جوراً إلى الحزن يستدعى

وإنى لأشكو عادة فى بلادنا رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
وذلك أنا لا تزال نساؤنا تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع

ويرد على من يدعى النقص فى النساء .

يقولون لى : إن النساء نواقص ويدلون فيما هم يقولون بالسمع
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدى وما أنا فى إنكار ذلك بالبدع
ووالله ما إن ضقت ذرعاً بقولهم ولكنه قد ضاق من فعلهم ذرعى

أما عن نظام الزواج وعاداته فقد أنكر على الآباء والأولياء ، تحكمهم فى قلب الفتاة ، وتصرفهم فى عاطفتها وشعورها ، وعنفهم على اضطرارهم إياها وقسرها على الخضوع لإرداتهم ، حتى ترضى بالشيخ الهم زوجاً لها ، لا لشىء إلا لأنه من ذوى الثروة واليسار .

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفضول هاتيك المطامع أشعبا
أفكوكب نحس يقارن فى الورى من سعد أخبية الغوانى كوكبا

ويدعوها إلى الرفض لأنها حرة ولا عار عليها إذا ما رفضت وأبت :

فإذا رفضت فما عليك برفضه عار وإن هاج الولى وأغضبا
إن الكريمة فى الزواج لحرة والحر يأبى أن يعيش مذبذبا
قلب الفتاة أجل من أن يشترى بالمال ، لكن بالمحبة يجتبى

ويذكر بيت الزواج ، وكيف يجب أن يكون ، وعلى أى الأسس يجب أن يشاد :

بيت الزواج إذا بنوه مجدداً بالمال لا بالحب عاد مخربا
إن الزواج محبة فإذا جرى بسوى المحبة كان شيئاً متعبا
لا مهر للحسناء إلا حبها فبحبها كان القران محببا

ويلوم الشرقيين لأنهم :

تركوا النساء بحالة يرثى لها وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
شرف المليحة أن تكون أديبة وحجابها فى الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه أغنى فتاة الحى أن تتنقبا
هل يعلم الشرق أن حياته تعلو إذا ربى البنات وهذبا

وعالج فى إحدى قصائده حكم العادات ، على من اعتقادها ودأب على تعاطيها ، ولا سيما السيئة منها . كنظرتهم إلى المرأة .

عناكب الجهل كم ألقت بأدمغة من الأنام نسيجاً من خرافات
فحرموا وأحلوا حسب عاداتهم وشوهوا وجه أحكام الديانات
حتى تراهم يرون العلم منقصة عند النساء وإن كن العفيفات
وحجبوهن خوف العار ليتهم خافوا عليهن من عار الجهالات

وقد وقف قلمه للدفاع عنها ، ورد عادية من يسىء إليها . فلما أصدرت نظيرة زين الدين كتابها « السفور والحجاب » وقامت عليها قيامة المنتقدين ، دافع عنها وأيدها فى رأيها . وقال لهم :

يا لاحئين إلى العناد خصومة ما كان حصن عنادكم بحصين
نحن السفوريين أعلم بالذى شرع النبى محمد من دين
أيكون ما شرح النبى محمد شيئاً يخالف شرعة المتدين ؟ !

ورأى المهجورة تصارع الآلام النفسية من هجر زوجها ، على وفائها له وحبها الشديد .

تبسم حيناً ثم تجهش بالبكا فمن لؤلؤ تبدى ومن لؤلؤ تذرى
كأن تلاميح الأسى فى جبينها بقايا ظلام الليل فى غرة الفجر

فشجاه حالها ، وواساها فى أليم مصابها ، وساءلها عما نابها فأجابته :

لك الخير من حر يسائل حرة شكت هجر بعل لم يكن بالفتى الحر
سقانى بكأس الحب حتى شربتها ولم أدر أن الحب ضرب من الخمر

فلمـــا رآنى قد سكرت بحبه صحا قلبه من حيث لم أصح من سكرى
ألا إن قلبى اليوم إذ مسه الجوى وإذ مال بعلى فى هواه إلى الغدر
ليفزع ممن يدعى الحب قلبه كما فزعت قمرية الروض من صقر

فرق لشكواها ، وشاطرها حزنها وأساها ، وتمنى لو يستطيع أن يعاقب زوجها على خيانته وغدره :

فقلت أما والله لو أن لى يداً على كل حكم جاء من ظالم الدهر
لشدّدت فى زجر المحبين إن جفوا وعاقبت منهم من يميل إلى الهجر

ورأى القوم يسرفون فى الطلاق إسرافاً كثرت ضحاياه ، وساءت عواقبه إلى أن :

وهى حبـل الزواج ورق حتى يكاد إذا نفخت له يذوب

فنظم قصيدته (المطلقة) يصور فيها زوجين متحابين ، رعى كل منهما حق صاحبه وأخلص له الود فى الغيبة والحضور ، وعاشا وادعين أمينين فصادف أن أغضب الزوج خلطاؤه يوماً :

فأقسم بالطلاق لهم يميناً وتلك أليـة خطأ وحوب
وطلقها على جهـــل ثلاثاً كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طـلاق بت ذوو فتيا تعصبهم عصيب
فبانت عنه لم تأت الدنايا ولم يعلق بهـا الذام المعيب

ومما يبعث الشجو ، ويستدر مياه الشؤون ، هذا الحوار الذى عقده بين الحبيبين المفارقين :

فظلت وهى باكية تنـادى بصوت منه ترتجف القلوب
لمـاذا يا نجيب صرمت حبلى وهل أذنبت عندك يا نجيب
ومالك قد جفوت جفاء قالٍ وصرت إذا دعوتك لا تجيب
أبن ذنبى إلىّ فدتك نفسى فإنى عنه بعـــدئذ أتوب

أما عاهـــدتنى بالله ألاّ يفرق بيننا إلا شعوب
لئن فارقتنى وصددت عنى فقلبى لا يفارقه الوجيب
وما أدماء ترتع حول روض ويرتع خلفها رشأ ربيب
فما لفتت إليه الجيد حتى تخطفـــه بأزمتيه ذيب
فراحت من تحرقها عليـــه بداء مالها فيـــه طبيب
تشم الأرض تطلب منه ريحاً وتنحب والبغام هو النحيب
وتمـزع فى الفلاة لغير وجه وآونة لمصرعـــه تؤوب
بأجزع من فؤادى يوم قالوا برغم منك فارقك الحبيب

فأصغى إلى عتابها جزعاً ملتاعاً ، ووعى كل ما أرادت :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى وقال ودمع عينيه ســكوب
نجيبـــة أقصرى عنى فإنى كفانى من لظى الندم اللهيب
وما والله هجـرك باختيارى ولـكن هكذا جرت الخطوب
فليس يزول حبك من فؤادى وليس العيش دونك لى يطيب
ولا أسلو هواك وكيف أسلو هوى كالروح فىّ له دبيب
سلى عنى الـكواكب وهى تسرى بجنح الليل تطلع أو تغيب
فـكم غالبتها بهـواك سهداً ونجم القطب مطلع رقيب
وما المـكبول ألقى فى خضمّ به الأمواج تصعد أو تصوب
فراح يغطه التيـــار غطاً إلى أن تمّ فيه له الرسوب
بأهلك يا ابنة الأمجـاد منى إذا أنا لم يعد بك لى نصيب

همسته

الرصافى من عشاق الحرية المتفانين فى حبها . وأغلى أمنية له فى الحياة أن تطلق حرية الفكر فيجاهر كل أحد بما يعتقده حقيقة وصواباً :

متى تطلق الأيام حرية الفكر فينشط فيها العقل من عقلة الأسر
ويصدع كل بالحقيقة ناطقاً ويترك ما لم يدر منها لما يدرى
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة عزينا معاذ الله ظلماً إلى الكفر

وإذا سألته عن الحر من هو ؟ أجابك :

الحر من خرق العادات مفتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات
ومن إذا خذل الناس الحقيقة عن جهل أقام لها فى الناس رايات
ولم يخف فى اتباع الحق لائمة ولو أتته بحدّ المشرفيات
وعامل الناس بالإنصاف مدرعاً ثوب الأخوة من نسج المساواة

فيهمّ أن يصدع بالحقيقة ، وأن يقيم لها رايات فى الناس فيقف الاستبداد الحميدى عقبة فى سبيله . هنالك يستنجد بحرية الصحافة ، فيناجى خيالها الذى تهفو إليه قلوب الأحرار أن يرحمه ولو بوعد ممطول :

أيا حرية الصحف ارحمينا فإنا لم نزل لك عاشقينا
متى تصلين كيما تطلقينا عدينا فى وصالك وامطلينا
فإنا منك نقنع بالوعود

يريد حرية الصحافة لينفس هو وغيره عن نفسه ، ويريد حرية العيش لينعم هو وغيره فى ظلها الوارف :

ألا إنما حرية العيش غادة منى كل نفس وصلها ووفودها
لقد واصلت قوماً وخلت وراءها أناساً تمنى الموت لولا وعودها

وقد كان يؤمل أن يفوز بهاتين الحريتين ، فى عهد الانقلاب العثمانى الذى قضى على عبدالحميد واستبداده :

وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا فأهلاً بما زفت وشكراً لمن زفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا

وقد شغلت الحرية حيزاً كبيراً من شعره ، وأصبحت كثيرة التردد على قلمه . فإذا مدح فالحرية أرفع الصفات التى يسبغها على الممدوح .

بأصح أحرار الأنام تحرراً فى فكره وبفعله وبقيله

وإذا رثى فالحرية أسمى ما يتحلّى به المرثى :

زكت لك نفس بين جنبيك حرة فلا أظهرت كبراً ولا أضمرت ضغنا

وإذا قاست نفسه الشدائد والمحن فى حياته صبّرها وواساها بقوله :

لقد تعبت فيما تروم من العلا كذلك نفس الحر تلقى المتاعبا

وإذا سمع من أساء إلى الوطن بكلام يأنف منه الرجال المخلصون قرعه بقوله :

إن ما قلته من القول هجر منكر لا تقوله الأحرار
وطن المرء عرضه وهواه وعلى العرض كل حر يغار

وإذا تغزل فالفتاة :

تستعبد الحر الأبى بمقلة دب الفتور بجفنها الوسنان

وإذا أدمن شرب الخمرة فليم عليه أجاب : لأن السكر :

به تزيد انكشافاً حريتى وعتاقى

وقد مرت على شاعرنا ظروف ، وتقلبت به أحوال زادته حنكة واختباراً فكونت لديه آراء حول الحرية أودعها قصيدته (فى سبيل حرية الفكر) فاستهلها ذاكرا عهد التحرير الذى كتبه لنفسه شعراً ، وأشهد الدهر عليه ، وجعل « الثريا فوق عنوانه طغرى » وعلقه « بمنبعث الأنوار من ذروة الشعرى » :

لذاك جعلت الحق نُصب مقاصدى وصيّرت سر الرأى فى أمره جهرا

ثم أعلن رأيه فيما يحب من الرجل ويكره .

أحب الفتى أن يستقل بنفسه فيصبح فى أفكاره مطلقاً حراً
وأكره منه أن يكون مقلداً فيحشر فى الدنيا أسيراً مع الأسرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة إذا أنتم لم تستقلوا بها فكراً
سواء على الإنسان بعد خموده أحل بقعر الأرض أم سكن المصرا

ويختمها بتوجيه وجهه شطر محراب الحرية خاشعاً متعبداً .

أحريتى إنى اتخذتك قبلة أوجه وجهى كل يوم لها عشرا
وأمسك منها الركن مستلماً له وفى ركنها استبدلت بالحجر الحجرا
إذا كنت فى قفر اتخذتك مؤنساً وإن كنت فى ليل جعلتك لى بدراً
وإن نابنى خطب ضممتك لائماً فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا
وإن لامنى قوم عليك فإننى ألتمس للقوم من جهلهم عذرا

بطؤه على العراق

للرصافى مع العراق أو مع بغداد شأن أى شأن . فقد بكى عليهما وهو مقيم فيهما ، وبكى عليهما وهو نازح عنهما . ولم ينسهما فى حالة طربه وأنسه ، ولا فى حالة كآبته وبؤسه . سمعناه وقد أرق من سروره « ليلة فى دمشق » ، مسحوراً بصوت رخيم يتغنى على نغمات العود ، فكدر عليه أنسه أن تذكر العراق وما استحوذ عليه من تأخر وانحطاط .

ويرد يوماً دجلة وحيداً

حيث ينصب فى سكوت عميق ماؤها لاثماً ضفاف الوادى

فيقف يردد طرفه فى هذا الماء المنساب ضياعاً . ويظل مستغرقا فى تأملاته يناجى مياه دجلة .

أيها الماء أين تجرى ضياعاً وحواليك قاحلات البوادى

فمتى تفطن النفوس فيحيا بك سقياً موات هذى البلاد

وقد احتلت هذه المياه محلا من نفسه وتفكيره ، فلم تغب عنه ولم تبرحه وإن نأت به الدار ، وشط المزار .

وما أنس لا أنس المياه بدجلة وإن هى تجرى فى العراق ضياعا

ولو أنها تسقى العراق لما رمت به الشمس إلا فى الجنان شعاعا

وما وجدت ريح وإن قد تفاوحت مهباً به إلا قرى وضياعا

سأجرى عليها الدمع غير مضيع وأندب قاعاً من هناك فقاعا

وتتضافر على بغداد مياه ثلاثة أنهر فتغرقها ، فقد أصابتها بالضرّ وهى مصدر النفع ، وأماتتها وهى أصل الحياة .

ومن العجائب أن يمسك ضرّه من حيث ينفع لو رعتك رعاة

إذ من ديالى والفرات ودجلة أمست تحل بأهلك الكربات

إلى من يشكو حالة بغداد ؟ إن القائمين بالأمر لا يشكونه ، بل لا يصغون إلى شكواه . الخير إذن فى أن يرفع شكاته إلى مؤسس بغداد ومقيم دعائمها .

من مبلغ المنصور عن بغداده ... خبراً تفيض لمثله العبرات
أمست تناديه وتندب أربعاً ... طمست رسوم جمالها الهبوات

و إلى أشهر من حكمها من بعده :

أترى أبو الأمناء يعلم بعده ... بغداد كيف تروعها النكبات ؟؟
لا دجلة يالرزية دجلة ... بعد الرشيد ولا الفرات فرات

و ينزل ببيروت فى فندق « قصر البحر » فيهيج مشهده شاعريته ، و يملى عليه قصيدة فى وصفه . ثم لا يلبث أن ينغص عليه الفراق بهجته وسروره .

تبسمت البلاد بكل أرض ... وما زال العراق به قطوب
فيالهفى على بغداد أمست ... من العمر أن ليس لها نصيب
سأبكى ثم أستبكى عليها ... إذا نضبت من العين الغروب

و يسافر إلى الآستانة ؛ والسفر إليها يومئذ خروج من الظلمات إلى النور ، وانتقال من البداوة إلى الحضارة فيستهويه مافيها من مظاهر المدنية والحرية ، ولا يرى بأساً بأن يتجول فى حيها (بك أوغلى) و إن غضب أحد المتزمتين .

فقال : أفى الحى الذى شاع فسقه ... تجول ألم تمنع عمامتك الفسقا
فقلت : أجل إن العمائم عندنا ... لتمنع فى لوثاتها الفسق والرزقا
ولكننى ما جئت إلا توصلا ... لذكرى شقاء فى العراق به نشقى

و بغداد التى « أضاعها بنوها » ؟

سأبكى عليها كلما جلت سائحا ... وشاهدت فى العمران مملكة ترقى
وأندبها عند الأغاريد شارباً ... من الدمع كأساً لا أريد لها مذقاً

إنه قال وصدق . فقد ذكرها « ليلة فى ملهى » وهو غريق فى بحر لجى من القصف والطرب فندبها و بكى عليها عند الأغاريد .

تلك والله ليلة لست أدرى في بلادى قضيتها أم غريبا
كدت أنسى بها العراق وإن أبقى ندوباً بمهجتى فندوبا
أين بغداد وهى تزهو علوماً وزروعاً وأربعاً ودروبا

وأذرى الدمع على العراق حين بلغه أن الجيش الأنكليزى المحتل أوقع فيه ما أوقع من الشوائب .

ألم تر فى القطر العراقى أمة من الأسر مشدوداً بأعناقهم ربق
فلا تعجبوا من أننى عند ذكرها أنوح عليها مثلما ناحت الورق

أما بعد فماذا لقى من الجزاء على هذه الدموع الجوارى التى تفجرت من أعماق قلبه المخلص السليم ؟ الجواب نجده فى شعره إذ يقول .

وكم لى فى بغداد من ذى عداوة وما أنا فى شىء عليه بجارم
إذا جئت بالقلب السليم يجيئنى بقلب له من كثرة الحقد وارم

ويفيض فى ذكر مالقى منهم فيقول :

أقمت ببلدة ملئت حقودا علىّ فكل ما فيها مريب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إلىّ كأنما قد مر ذيب
وكم من أوجه تبدى ابتساماً وفى طى ابتسامتها قطوب

ويقول :

عتبت على بغداد عتب مودع أمضّته فيها الحادثات قراعا
أضاعتنى الأيام فيها ولو درت لعز عليها أن أكون مضاعا
لقد أرضعتنى كل خسف وإننى لأشكرها إن لم تتم رضاعا
وما أنا بالجانى عليها وإنما نهضت خصاما دونها ودفاعا
وأعملت أقلامى بها عربية فلم تبد إصغاء لها وسماعا
ولو شئت كايلت الذين انطووا بها على الحقد صاعاً بالعداء فصاعا
ولكن هى النفس التى قد أبت لها طباع المعالى أن تسوء طباعا

فصفح عنهم وعفا :

فقابلتهم بالصفح عنهم ترفعاً وأعرضت عن شتم السفيه المهاتر

ويقول :

يا لاهجين بشتمى فى مجالسهم ناموا على الأمن فى أحضان غفرانى

و إن ذكرى مساويكم إذا انتقدت أهرقت منى عليها سجل نسيان

أرأيتكم بعد تلك العبرات التى أذالها على مجد العراق وعز بغداد ، أيلام إذا غضب فقال :

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنها الليالى فى الدواوين

لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقينى

ما كنت أحسب أنى مذ بكيت بها قومى بكيت على من سوف يبكينى

غير أنه بعد أن قرت شقاشقه ، وهدأت ثورته النفسية عاد فقال :

إن جفتنا بلادنا فهى حب ومن الحب يستلذ الجفاء

إنما هذه المواطن أم مستحق لها علينا الولاء

إن خدمنا فلا نريد جزاء ومن الأم هل يراد جزاء

وقال :

ولى وطن أفنيت عمرى بحبه وشتّتَّ شملى فى هواه مبددا

ولم أر لى شيئاً عليه وإنما علىَّ له فى الحب أن أتشددا

وقال :

وطن عشت فيه غير سعيد عيش حر يأبى على الدهر عوجه

أتمنى له السعادة لكن ليس لى فيه ناقة منتوجه

أخصب الله أرضه ولو أنى لست أرعى رياضه ومروجه

كل يوم بعزه أتغنى جاعلا ذكر عزه اهزوجه

الوصف

الوصف أكثر الأغراض شيوعاً فى شعره ، حتى لا يكاد يخلو منه باب من أبواب ديوانه . و إليكم أمثلة منه :

وصف المخترعات العلمية :

سمع الفنغراف أو الحاكى وهو إحدى معجزات العلم فوصفه بقوله :

ومائدة نسج الدمقس غطاؤها بمجلس شبان هموا أنجم العصر
رقى من أعاليها الفنغراف منبراً محاطاً بأصحاب غطارفة غر
فراح بإذن العلم ينطق مقولاً عرفنا به أن البيان من السحر
فطوراً خطيباً يحزن القلب وعظه وطوراً يسرّ السمع بالعزف والزمر
يفوه فصيحاً باللغا وهو أبكم ويسمع ألحان الغنا وهو ذو قر
أمين أبى التدليس فى القول حاكياً فتسمعه يروى الحديث كما يجرى
تراه إذا لقنته القول حافظاً تمر الليالى وهو منه على ذكر

وركب القطار لأول مرة مسافراً من الآستانة إلى سلانيك فلقى فيه من الدعة والراحة ، والسرعة ما حبّب إليك الأسفار ، وأغراه بوصفه فقال :

وقاطرة ترمى الفضا بدخانها وتملأ صدر الأرض فى سيرها رعبا
لها منخر يبدى الشواظ تنفساً وجوف به صار البخار لها قلبا
فطوراً كعصف الريح تجرى شديدة وطوراً رخاء كالنسيم إذا هبا
تساوى لديها السهل والصعب فى السرى
فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا
تدك متون الحزن دكا وإنها لتنهب سهل الأرض فى سيرها نهبا
يمر بها العالى فتعلو تسلقا ويعترض الوادى فتجتازه وثبا

تغالب فعل الجذب وهى ثقيلة فتغلب بالدفع الذى عندها الجذبا
طوت بالمسير الأرض طياً كأنها تسابق قرص الشمس أن يدرك الغربا
فجئنا ولم يعى السفار مطيّنا كأن لم نكن سفراً على ظهرها ركبا

ووصف (القومبيل) — كما سماه — لدى أول مرة ركبه فى « فدفد قاتم الأعماق » فشعر به :

يمر كالريح لم تسمع لأرجله سوى حفيف كنفخ فى الأنابيب
وتنكر الخيل إن جارته فى سنن ما تعرف الخيل من حضر وتقريب
فكنت أبصر حولى الأرض جارية كمثل تيار بحر وهو يجرى بى
يلوح فصل الربى وصلا فأحسبها من سرعة المرّ قد صفّت بترتيب
جرّبته هابطاً أجزاع أودية وطالعاً فى الثنايا والعراقيب
وملهباً فى سهول الأرض ينهبها نهباً ويخلط الهوباً بالهوب
فكان أسبق مركوب لغايته وكنت أقرب طلّاب لمطلوب

لقد وصف القطار والقومبيل بعد أن سافر بهما وتجلت له مزاياهما . لهذا كنت أتمنى أن يطير لأرى ماذا يوحى إليه الطيران فلم تسعف الظروف ، ولا تسنّت الأسباب التى تحقق أمنيتى . ولما رثى « شهداء الطيران » وصف الطيارة ، ولكنه وصفها وصف من رآها لا من اختبرها :

وطائرة مرفعة الذنابى بأجنحة الرياح لها ارتقاء
يجول بها من البنزين روح كما جالت بأوردة دماء
تمرّ كأنها فى الجو نسر إلى زهر النجوم له انتماء
وتختبط الهواء بساعديها فتعصف منهما الريح الرخاء
فتمضى فى الفضاء مضى سهم عن القوس الضروح له ارتماء
فيبصر كالنجوم لها علوّ ويسمع كالرعود لها رغاء

والساعة ؟ أليست هذه الخرساء التى « لم ينطق بحرف لسانها » جديرة بالوصف وهى التى :

حكت لهجة التمتام لفظاً ولم تكن لتفصح إلا بالزمان لغاها
لها ضربان فى الحشا قد حكت به فؤاداً تغشاه الهوى وحكاها
مشت بين أنات الزمان تقيسه وما هو إلا مشيها وخطاها
تريك مكان الشمس فى دورانها إذا حجبت عنك الغيوم ضياها
بنتها النهى فى الغابرين بسيطة فتمّ على مرّ الزمان بناها
تنادى بنى الأيام فى نقراتها أن اسعوا بجد بالغين مداها

وصف الصمت :

هل الصمت مما يوصف ؟ وهل يوصف غير المحسوس ؟

إن شاعرنا يصفه لأنه كان يحس به حساً وجدانياً وهو على ساحل البحر فى ليلة قمراء غمره فيض نورها الزاهر :

وليل كأن البدر فيه مليحة أغازلها والغيرات رقيب
سريت به والبحر رهو بجانبى وردن النسيم الغض فيه رطيب
فشاهدت فيه الحسن أزهر مشرقا له فى العلا وجه أغر مهيب
ورحت وأهل الحىّ فى قبضة الكرى وفى الليل صمت بالسكون مشوب
فكنت كأنى أسمع الصمت جارياً له بين أحشاء الفضاء ذبيب
ولو أن صمت الليل لم يك مطرباً لما هز أعطاف النسيم هبوب

وصف البحر والقمر :

ويلتفت إلى هذا البحر الرهو :

وإن البحر أحسن ما تراه إذا لبست غوارب السكونا

فيصفه قائلا :

ألا إن وجه البحر بالنور ضاحك طليق وثغر الماء فيه شنيب
ترقرق مذساباً به الماء والسنى فلم أدر أىُ اللامعين يسيب
وللبدر نور يمنح البحر رونقاً فيبدو كأن الماء فيه ضريب
إذا جمّش البحر النسيم تهلّلت أسارير فيها للضياء وثوب

ومنظر القمر إذا توّج هامة الليل يستهويه ، ويستجيش الشعر فى صدره :

أو ما ترى البدر المنير إذا بدا يكسو الدجى من نوره سربالا
والليل يلبس من سناه مطارفاً منها يجر بدجلة أذيالا
وجبين دجلة قد صفا متألقاً فحكى السماء محاسناً وجمالا

وإليكم مشهداً آخر من هذه المشاهد التى فتنته واستهوته :

البحر رهو والسما صاحيه والفخت فى الليل شبيه السديم
والبدر فى طلعته الزاهيه قد ضاحك البحر بثغر بسيم
والصمت فى الأنحاء قد خيما فالليل لم يسمع ولم ينطق
والبدر فى مفرق هام السما تحسبه التاج على المفرق
أغرق فى أنواره الأنجما وبعضها عام فلم يغرق
والبحر فى جبهته الصافية قام طريق للسنى مستقيم
لم تخف فى أثنائه خافية حتى ترى فيه اهتزاز النسيم

وصف الغروب :

ووصف غروب الشمس وهو فى ريف تحيط به المزارع ، وتكتنفه المروج الخضر وكانت الشمس قد :

نزلت تجر إلى الغروب ذيولا صفراء تشبه عاشقاً متبولا
تهتزّ بين يد المغيب كأنها صب تململ فى الفراش عليلا

وقد ألقت نفسها فى أحضان الغرب بعد أن :

ضحكت مشارقها بوجهك بكرة وبكت مغاربها الدماء أصيلا
حتى دنت نحو المغيب ووجهها كالورس حال به الضياء حيولا
وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة عطشت فأبدت صفرة وذبولا
فلما غربت تركت بعدها « شفقاً بحاشية السماء طويلا »
شفق يروع القلب شاحب لونه كالسيف ضمخ بالدما مسلولا
يحكى دم المظلوم مازج أدمعاً هملت بها عين اليتيم همولا

وصف روضة :

وارتاد روضة إبان الربيع فيها « ناح الحمام وغرد الشحرور » وجرى مترقرقاً منساباً فى جنباتها :

ماء قد انعكس الضياء بوجهه وصفا فلاح كأنه بلّور
وتسلسلت فى الروض منه جداول بين الزهور كأنهن سطور

وتبرجت فيها الطبيعة وأخذت زخرفها وازينت فدعته إلى وصفها فلبّى قائلا :

ماذا أقول بروضة عن وصفها يعيا البيان ويعجز التعبير
غنى الربيع بوشيها فتنوعت للعين أنوار بها وزهور
مثلت بها الأغصان وهى منابر وتلت بها الخطباء وهى طيور
متعطر فيها النسيم كأنما جيب النسيم على الشذا مزرور

وزاد فى جمالها الطبيعى جمال صناعى هو مرأى فوارة :

يحكى عمود الماء منها آخذاً صعداً عمود الصبح حين ينير
ناديت لما أن رأيت صفاءه والنور فيه مغلغل مكسور
هل ذاك ذوب الماس يجمد صاعداً
أم قد تجسم فى الهواء النور

وصف حريق :

ولما كان فى الآستانة شهد ثلاثة مشاهد للحريق ، عنيفة جداً ، أثرت فى نفسه تأثيراً مؤلماً فوصفها كما تجدونها فى باب « الحريقيات » من ديوانه ، أحدها الحريق الذى التهم قصر « شراغان » وقد سبق أن ذكرته لكم . فبدأه بوصف القصر قبل أن يحترق إنه :

قصر أطل على البسفور مرتفعاً ... إليه يشخص طرف العقل حيرانا
ذو زخرف يبهج العين التى نظرت ... حتى تراه لها نوراً و إنسانا
راقت مبانيه إتقاناً وهندسة ... مستوقفاً صنعها من مرّ عجلانا
عرش به تعرف الناس الجلالة إذ ... لاح الجمال على مبناه ألوانا

ولكن الأيام لم تدعه متمتعاً بجماله وجلاله بل :

فيه الحوادث أمست وهى ناطقة ... بألسن دلعتها فيه نيرانا
فلو رأيت وقد شبّ الحريق به ... والريح تصفق للنيران أردانا
رأيت ملكاً كبيراً ثم محترقاً ... يذيب منه لهيب النار عقيانا
طالت به ألسن للنار تلحسه ... لحساً يدك قوى البنيان إيهانا
معاول من شواظ النار هادمة ... يا للعجائب كالأطواد جدرانا
قمنا أمامك والنيران صائلة ... تدك منك على الأركان أركانا
كم هدة لك بين النار تفزعنا ... حتى نخالك منها صرت بركانا
يهتز فيك لهيب حين نبصره ... نهتز بالحزن أرواحاً وأبداناً

* * *

بعد ما أحطنا بما تقدم من الأوصاف المختلفة ننتقل إلى وصف الإنسان ، فأى جنس منه يستدعى الشاعر إلى وصفه ويحرّك فيه شاعريته غير المرأة وجمالها ومزاياها ؟ دونكم فاسمعوا وصف كرائم سائرات :

و بيضة خدر إن دعت نازح الهوى أجاب ألا لبيك يا بيضة الخدر
من اللاء يملكن القلوب بكلمة و يحيين ميت الوجد بالنظر الشزر
تهادت ترينى البدر محدقة بها أوانس إحداق الكواكب بالبدر
فلله ما قد هجن لى من صبابة ألفت بها طى الضلوع على الجمر
تصافح إحداهن فى المشى تربها فنحر إلى نحر وخصر إلى خصر
حرزن وقد أقصرت خطوى تأدباً وأجمعت أمرى فى محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهن أرؤساً عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفى فوق صدرى مسلماً وأطرقت نحو الأرض منحنى الظهر
وأرسلت قلبى خلفهن مشيعاً فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

ودونكم وصف مشهد من مشاهد الحب والغرام :

وزان عرض البحر ما قد بدا من زورق يجرى بمجدافتين
عام بذوب الماس أو قد غدا يسبح فى لجة ذوب اللجين
فى صامت الليل جرى مفردا و بين جنبيه حوى عاشقين
من غادة فى حسنها غانيه تبسم عن لألاء در نظيم
ومن فتى أدمعه جاريه قد صافح العشق بجسم سقيم
قابلها والحب قد شفه وقابلت طلعة بدر السما
وظل يرنو تارة خلفه وتارة ينظرها مغرما
ثم تدانى واضعاً كفه فى كفها يطلب أن يلثما
وخرّ من وجد على الناصية وقلبه يركض ركض الظليم
وهى غدت من أجله جاثيه واحتضانته كاحتضان الفطيم

بنات الفن وأوصافهن :

قبل أن أنشدكم وصفه المغنيات من بنات الفن ، لابد لى من الرجوع إلى رأيه فى الغناء فأذكركم بما نقلته من كتابه (خواطر ونوادر) . أما شعره فإذا رجعنا إليه ألفينا الشاعر يرى الحياة جافة لا تطاق إذا لم يتوسل الإنسان بما يخفف شيئاً من قسوتها ، لتكون محتملة مستساغة . إذن :

رطب حياتك بالغناء إذا عرا ... همّ يجفف فى الحلوق الريقا
إن الغناء لمحدث لك نشوة ... فى النفس تطفىء فى حشاك حريقا
واترك مجادلة الذين توهموا ... هزج الغناء خلاعة وفسوقا
أفأنت أغلظ مهجة من نوقهم ... فقد استحثوا بالحداء النوقا

ويرى أن للأرواح غذاءً :

هو النغم الرقيق من المثانى ... هو الأدب الرفيع هو العلوم
فإن الروح تغذوها الأغانى ... ويجلو همها الصوت الرخيم
فلا تنفر بسمعك من غناء ... به غنتك شادية بغوم
ولا تترفعنّ عن الملاهى ... ولو شهدت برفعتك النجوم
وكن فى المطربات فتى طروباً ... فإن الناس أطربها الكريم

هذا رأيه فى الغناء فلننظر إلى وصفه المغنيات . قال وقد طرب لسماعه منيرة المهدية تشدو :

ولا غرو أن ملكت فى الغنا ... ء وأن أحرزت فيه أعلى الرتب
فقد أدركته على رسلها ... ونالت أقاصيه من كثب
وأيدها الله من صوتها ... بأكبر عون وأقوى سبب
أرى فمها صيغ من حكمة ... وأبخسه إن أقل من ذهب
تلوح فتبتز بدر الدجى ... وتشدو فيعتز فن الأدب

بلحن إذا امتدّ هزّ القلو ب وخدّر أبداننا والعصب
ترفرف أرواحنا تحته كما رفرف الطير لما انقلب
نكاد إذا هى غنت نطي ر إليها بأجنحة من طرب

وقال حين بعثت فيه أم كلثوم نشوة السرور والانشراح :

ما تغنت إلا وقد سحرتنا بافتنان لها وأى افتنان
تنشد الشعر فى الغناء فتأتى بلحون مطابقات المعانى
كم سقتنا كأس السرور بلحن وبلحن كأساً من الأشجان
تفهم الروح منطق الحب مما تتغنى به بلا ترجمان
حسن صوت يزينه حسن لحن فيه للسامعين حسن بيان
تسترقّ القلوب منا بصوت نعبد الحسن منه بالآذان
فى وقار الحليم تجعلنا طوراً وطوراً فى خفة الذشوان
نتفانى فى الاستماع إليها ونرى لذة لنا فى التفانى
وترانا نهتز حين تغنى فكأنا فى حالة الطيران
وكأن الأرواح إذ تتعالى طرباً جردت من الأبدان
هى فى مرتقى الأغاريد تعلو حين تشدو ونحن فى خطران

أما الرقص فأبدأ برواية أبيات نظمها فى وصف فتاة جمعت بين الإجادة فى الرقص والبراعة فى والغناء . أصغى إليها أولاً فسمعها قد « أفاضت . . . من بديع الغناء فى كل فن » :

مذ أقرت برقصها كل عين واسترقت بصوتها كل أذن
رقصها يرقص القلوب على أنّ غناها عن المزامير يغنى
خلق الله صوتها العذب كيما يعرف الناس كيف حسن التغنى
ويراها ممشوقة القد كيما يعرف الناس كيف حسن التثنى

بنت فن غنت لنا فسقتنا من أفانين لحنها بنت دن
سحرتنى مذ أقبلت تتثنى فكأنى مذ أقبلت لست منى

ووصف راقصتين قضى فى مشاهدتهما « ليلة فى ملهى » فقال فى الأولى وقد أعجبه زيها فبدأ بوصفه :

أقبلت تتثنى بقد رشيق ألبسته البرد القصير قشيبا
قصرت منه كمه عن يديها وأطالت إلى النهود الجيوبا
حبس الخصر حيث ضاق ولكن أطلق النحر بادياً والتريبا

ثم شرع فى وصف جمالها ورقصها فلم يغادر من حركاتها دقيقة ولا جليلة إلا أحصاها :

خطرت والجمال يخطر منها فى حشا القوم جيئة وذهوبا
وعلى أرؤس الأصابع قامت تتخطى تبختراً ووثوبا
أظهرت فى المجال من كل عضو لعباً كان بالقلوب لعوبا
شابهت عطفة الغصون انثناء وحكت خطرة النسيم هبوبا
تلفت الجيد للرجوع انصياعاً كغطيم رأى على البعد ذيبا
تثب الوثبة الخفيفة كالبر ق صعوداً فى رقصها وصبوبا
حركات خلالها سكنات يقف العقل بينهن سليبا
وخُطاً تفضح العقود اتساقاً نظمتها تسرعاً ودبيبا
بسمت كوكباً ومرت نسيماً وشدت بلبلاً وفاهت خطيبا

وقال فى الثانية :

وأنت بعدها من الغيد أخرى يقتفى إثرها الجمال جنيبا
فأرتنا من الجبين صباحاً ومن الخد كوكباً مشبوبا

وقد أبدت مهارة فائقة فى الرمى استثارت إعجاب شاعرنا فقال :

حملت بندقية صـــوّبتها نحو مستهدف لها تصويبا
واستعرت رمياً بها عن بنان لطفه ضامن له أن يصيبا
تحسن الرمى تارة مستقيماً وإلى الخلف تارة مقلوبا
وانكباباً إلى الأمام وإقعـــاساً كثيراً إلى الوراء عجيبا
وهى فى كل ذا تصيب الرمايا مثلما طرفها يصيب القلوبا
لو أرادت رمى الغيوب وأغضت لأصابت خفيَّها المحجوبا

العلوم التى طرق أبوابها

تتذكرون أن الرصافى يقول بأن الشعر ، كالنثر ، يصلح لجميع المعانى ؛ وأن فى إمكان الشاعر أن يطرق ما شاء من أبواب العلوم فيعمد إلى حقيقة مادية جافة منها ويلبسها ثوباً قشيباً من الخيال ، ويظهرها للناس بصورة شعرية . والرصافى نفسه طرق أبواب علوم كثيرة فأجابته أفضل إجابة ؛ حتى أنكم إذا قرأتم الحقائق العلمية التى ألبسها ما اختار لها من ثياب الخيال القشيبة وجدتموها قد اندمجت فى شعره اندماجاً يدلُّ على أنه درس تلكم العلوم وفهمها وهضمها ، وإلا لبدت نابية فى شعره ، قلقة فى الأماكن التى أسكنها فيها ، فقد طرق باب العروض فقال :

وما المرء إلا بيت شعر عروضه ... مصائب لكن ضربه حفرة القبر
تنظمنا الأيام شعراً وإنما ... تردّ المنايا ما نظن إلى النثر
فمنّا طويل مسهب بحر عمره ... ومنا قصير البحر مختصر العمر

وباب الحساب فقال :

ضاع جذر الحياة عنا فخلفنا ... أنها كالأصمّ فى الأعداد

وباب الفيزياء فقال :

حفَّ من غاص فى الغرور كما فى ... لجة الماء خف ثقل الجماد

وباب الكيمياء فقال :

ولولا اتحاد العنصرين لما غدا ... من النار يذكو لو علمتم وقودها

وباب الفلك ؛ وهو أكثر ما طرق من أبواب العلوم . فقد استهواه هذا الكون العجيب الذى يسبح :

فى فضاء لو سافر البرق فيه ... ألف قرن لما أتى مستقرّه
ولو الشمس ضوعفت ألف ضعف ... لم تكن فى أثيره غير ذره

ولو الفكر غاص فيه مغذاً لم يكن بالغاً يد الدهر قعره
سعة تحسب المجرّة فيها حلقة ألقيت بصحراء قفره
يقف الفكر دونها مكوئداً مقشعراً وتأخذ العقل حيره

هكذا يقف تجاه اللانهاية مأخوذاً بجلالها ، مكبراً عظمتها ، كما يقف أمام جمال الكائنات مبهوراً ينادى :

جمالك يا وجه الفضاء عجيب وصدرك يأبى الانتهاء رحيب

حتى دعاه هذا الجمال العجيب إلى الغزل والنسيب :

تأملت فى حسن العوالم موهنا فجاش بصدرى الشعر وهو نسيب
كأنى وعلوى للعوالم عاشق أطلّ من الأعلى عليه حبيب
فقام له مستشرفاً ، ويمينه تشدّ ضلوعاً تحتهن وجيب

وكم شغلت فكره نجومه الزهر التى يحسبها وهى فى القبة الزرقاء « فرائداً وهى من فيروزج سفط » فسهر ليالى يتأمل فيها ، و يتفكر فى خلق السموات والأرض يودع منها سرباً ويستقبل سرباً . وبات يتجول فى جمال السماء الرائع متنقلا بين حسن كواكبها ، وقبح ظلامها فأصبح ولا يعلم أنه أحياها لولا تباشير الفجر تلوح فى الأفق :

وليل غدا فىّ الجناحين بقه أسامر فى ظلمائه واقع النسر
وأقلع من سفن الخيال مراسيا فتجرى من الظلماء فى لجج خضر
أرى القبة الزرقاء فوق كأنها رواق من الديباج رصع بالدر
ولولا خروق فى الدجى من نجومه قبضت على الظلماء بالأنمل العشر
خليلىّ ما أبهى وأبهج فى الرؤى نجوماً بأجواز الدجى لم تزل تسرى
إذا ما نجوم الغرب ليلاً تغوّرت بدت أنجم فى الشرق أخرى على الإثر

تجولت من حسن الكواكب فى الدجى
وقبح ظلام الليل ، فى العرف والنكر

إلى أن رأيت الليل ولت جنوده على الدهم يقفو إثرها الصبح بالشقر
فيالك من ليل قرأت بوجهه نظيم البها فى نظم أنجمه الزهر

لقد استهواه إذن هذا الكون فنظم فيه كثيرا حتى نظم أحدث النظريات فى تكوّن الأرض ، فوفق لأدائها أداءً شعرياً فائقاً :

خبر فى الأرض أوحته السما لاولى العلم برسل الفكر
إن هذى الأرض كانت أولا ما ترى بحراً بها أو جبلا
أو سهولاً أو رباً أو سبلا أو رياضاً زهرها الغض نمى
من سحاب جادها بالمطر

بل كانت هى وأخواتها وأمهن الشمس كلهن سديماً فى الفضاء « كتلة واحدة فى النظر » فانفصلت منه « قطع منها صغير وجسيم » وصرن يدرن حول الأم .

وكانت الأرض لما انفصلت فيحاً من النار ينشر وهجاً فى الفضاء . وبدورانه الدائم المستمر استحال كرة لأنه :

كل ما كان بحال السيلان فهو يغدو كرة بالدوران
وكذاك الأرض فى ماضي الزمان كروياً قد غدا ملتئما
جرمها من سيلان العنصر

فلبثت دهوراً تدور « وهى بالإشعاع يخبو حرها » حتى برد ظاهرها وتصلب فصار قشراً حول ذلكم الفيح الملتهب :

ثم قد صار على مر الزمان قشرها يغلظ آناً بعد آن
بيد أن النار عند الهيجان قد أعادت قشرها منخرما
بصدوع مدهشات البصر

وهكذا تكونت البراكين التى :

تقذف الأفواه منها حمما صار منهن ركام الحجر
وهناك انعقدت فيها الغيوم من بخار كان فى الجوّ يعوم

ردّه البرد مياهاً فى الفـخوم فجرى السيل عليهـا مفعما
كل غور فوقها منحدر

ولمـا غمر الماء من الأرض ما غمر ، شخصت الجبال فى الماء « وعلت كالسفن فوق الأبحر » وظهرت الجزر لما غطى الماء بعض الأرض « ثم خلّى بعضها منحسرا » وهكذا لبثت الأرض دهوراً :

ثم صارت وهى من قبل موات تصلح الأقطار منهـا للحياة
فانبرت تنبت فى البدء النبات ثم أبدت من قواها النسما
وارتقت فيها لنوع البشر

ويومئذ زهت الأرض بالرياض والمروج ، وكثرت فيها الغابات الـكثيفة التى أخذت « ترميها أكف الانقراض » .

بانحطام حيث تمسى فحما حجريا بمـــرور الأعصر

وتقلّبت على الأرض انقلابات هائلة صيرت من الجبال بحوراً ومن البحور جبالا :

وعلى ذاك استدل الحـكما بجبال السـمك المستحجر

واستدلوا على تلـكم الانقلابات بوجود بقايا الأحياء المختلفة :

علماء الأرض لم تبرح ترى حيـوان البر لما دثرا
منـه فى الأبحر أبقى أثرا وكذا فى البر ألفى العلما
أثراً من حيـوان الأبحر

ويختم القصيدة بانفصال القمر من الأرض فيقول :

ثم إن الأرض من قبل الجمود ولدت منهـا وليست بالولود
قمراً دار عليها بسـعود وجلا فى الليل عنها الظلما
فهى بنت الشمس أم القمر

إذن ما حقيقة الأرض التى نعيش عليها ؟ يجيب :

نحن من أرضنا على منطاد جائل فى شواسع الأبعاد
طائر فى الفضاء عرضا وطولا بجناح من القوى غير باد

وعن هذا السير نتج الليل والنهار :

أيها الأرض سرت سيرك مثنى ذا نتاجين فى زمان أحاد
فتقلبت فى نهار وليل ذا مضل وذاك للناس هاد
فى بلاد يكون سيرك تأويـ . . باً على أنه سرى فى بلاد

إن العالم منهم فى نظره وكل ما قال العلماء فى الأجرام السماوية وأفلاكها إن هو إلا نظريات لا تلبث أن تنسخها نظريات أخرى .

ففى هذا الفضاء المترامى الأطراف :

سرت زهر النجوم وما دراها فلاسفة مضت ومنجمونا

فأصبح كتاباً « نطالعه ولسنا مفصحينا » :

نحاول منه إعراب المعانى بتأويل فنرجع معجمينا

فمن يقوى إذن على كشف الحقيقة ؟ ربما تكون النجوم أدرى بحقيقة أمرها وأعلم .

و إذا صح هذا الحدس فمن رسوله الذى يستنبئها ويأتيه بالخبر اليقين ؟ إنه النور ليس غير .

ألكنى يا ضياء إلى الدرارى رسالة مسهر فيها الجفونا
لعلك راجع منها جواباً يزيل عماية المتحيرينا
فقل إنى تحير فيك فكرى كذاك تحير المتفكرونا

لأن أقوال العلماء ونظرياتهم لم تشف غليله :

(فهرشل) ما شفى منا غليلا ولا (غاليل) أنبأنا اليقينا
و (كبلر) قد هدى أو كاد لما أبانك يا نجوم تجاذبينا

وإذا كان هذا كل ما وصل إليه العلماء الذين رصدوا الأجرام السماوية ودرسوها فمن يهدى إلى الصواب ؟ إنه يؤمله من النجوم :

لعل النجم فى إحدى الليالى سيبعث للورى نوراً مبينا
تقوم له الهواتف قائلاتٍ خذوا عنى النهى ودعوا الجنونا

وقد أودع قصيدته (من أين إلى أين) كل حيرته وشكه فى آراء العلماء :

ما زلت من حيرة بأمرى معانق اليأس والرجاء
يا قوم هل فى الزمان نطس يهدى إلى ناجع الدواء ؟

أما تعليلهم أن الضياء متولد من اهتزاز الأثير فلا يطمئن إليه :

أرى ضياءً يروق عينى ولست أدرى كنه الضياء
وما اهتزاز الأثير إلاَّ علالة نزرة الجـــلاء
نحن على رغم ما علمنا نعيش فى غيهب العماء

والجاذبية التى سماها « عماد السماء » هى التى ربطت النجوم بعضها ببعض :

فدرن فى الجو جاريات كأنها السفن فوق ماء

ولولاها لاختل نظام الكون وتصادمت أجرامه . غير أنه يثور على الجاذبية لأنها هى التى قعدت به وقيدته بالأرض :

يا قوة الجذب أطلقينى من ثقلة أوجبت عنائى
لولاك لولاك يا شكالى لطرت كالنور فى الفضاء

وأما الكهرباء وآراء العلماء فيها فلا يخرجها كلها من حدود الظنون :

وأنت يا كهرباء سر بدا وما زال فى غشاء
عجائب الكون وهى شتى فيك انطوت أيما انطواء
وكم تقاضاك فيلسوف حقيقة صعبة الأداء
فقال والقول منه ظن ما الكون إلا بالكهرباء

وفى هذه القصيدة يصف ليلة من أروع الليالى ، سامر فيها النجوم وناجاها ، وحدثها وساءلها وإن لم يعد منها بجواب :

وليـــلة بتها أنادى نجومها أبعد الفـــداء
آخذ منهن بالتـدانى فـكراً ويأخذن بالتنائى
فأنثنى باكياً بشـعرى ويطرب الليل من بكائى
وربما كر بعـد وهن فـكرى فألفى بعض الشفاء
فأرجع القهقرى أغنى وما سوى الشعر من غناء
أقول والنسر فوق رأسى وطالع النجم فى إزائى
يا أيهـا الأنجم الزواهى لله ما فيك من بهـاء
يا أنجم النعش فاصدقينى أمات ذو النعش بانطفاء ؟
وأنت يا نسر من كلال وقعت أم طلبة الغـذاء
أخوك هل طائر لوكر أم قاصد منتهى الفضاء ؟
كأن أم النجوم سيف سل على الليل ذو مضاء
رصـع متناه بالدرارى فراق فى الحسن والرواء

تشجيع المشروعات المفيدة

لا أريد بهذا كل قصيدة أنشدها فى اجتماع عقد ، أو حفل أقيم ؛ فقد كان شاعرنا منشداً حسن الإنشاد ، وإن كثيراً من قصائده أنشدها فى مثل تلكم المحافل ، ولكننى أريد ما نظم فى المشروعات الوطنية التى تفيد البلاد أو تغنيها عن الأجنبى . فإذا أسس معهد علمى ، أو منتدى تهذيب لم يتأخر عن تأييد القائمين بهما وتشجيعهم ، فينشد فى حفلة افتتاح الأول قصيدة يقول فيها :

ومعهد علم أسسته عصابة من القوم تسعى للنجاح وتجهد
شباب مشوا للمكرمات بعزمة تقاعس عنها الكوكب المتوقد
سأستودع الأيام كل قصيدة يطيب لهم فيها الثناء المخلد

وينشد فى حفلة افتتاح الثانى قصيدة يختمها بهذين البيتين :

ألا رب شاك قال لى وهو آسف أما آن للتهذيب أن يتبغددا
فقلت له : أبشر بخير فإنه ببغداد للتهذيب أسس منتدى

ويؤسس ببغداد السينما العراقى ثم السينما الوطنى فيسره أن يقدم أبناء البلاد على هذا العمل المفيد فيقول فى الأول :

رأيت لهذه السنمات فضلا ولا كالفضل للسنما العراقى
هو الوطنى فاترك ما سواه وخل الأجنبى لذى النفاق
ولو لم يحو وصفاً غير هذا لوافق مشربى وكفى مذاق

ويقول فى الثانى :

لو جعلنا كل شىء وطنيا لقطفنا ثمر المجد جنيا
ولعشنا اليوم فى أوطاننا مستقلين بها عيشاً رخيا
إن بغداد قضت واجبها مذ أرتكم سنماها الوطنيا

يبهج الناظر فيـــه أنه يقرأ المكتوب فيه عربيا
يا بنى بغداد لا عذر لكم إن أتيتم بعد هذا الأجنبيا

وتؤلف شركة للمنسوجات الوطنية بدمشق فيدعو إلى مؤازرتها لكونها :

تُغنى البلاد بسعيها عن غيرها وتعيد عهد ثرائها المفقـود
حتى تكون عن الأجانب فى غنى وتعيش غير أسيرة التقليـد
لا يستقل بسيفه الشعب الذى لا يستقل بنقـده المنقود

ويقيم مستشفى السل بلبنـان حفلة فيقف فيها داعياً له ، منشداً قصيدة عامرة فى وصف لبنان جاء فيها :

فمن زاره مستوحشاً فهو أنسه ومن جاءه مستنزهاً فهو قدسه
ومن زاره مستشفيا زاده الشفا وإن كان قبلاً يائساً منه نفسه
ولو جاءه من فيه مس وجنـة لما حلّه إلا وقد زال مسـه
كتبت كتاب المدح فى وصف حسنه فضاق ولم يستوعب الوصف طرسه
ألا إن فى لبنان جواً مروّقاً إذا ما شفى المسلول لم يخش نكسه

وتؤسس ببغداد جمعية حماية الأطفال ، فينشد فى حفلة تأسيسها قصيدة يحث فيها على معاضدة هذا المشروع :

ومما سرنى أنى أناجى رجالاً فى الفخار ذوى ابتداع
سعوا لحماية الأطفال منا بما أوتوه من كرم الطباع
إذا لم يعن بالأطفـال قوم فهضبة مجدهم رهن انصداع

ووقف على مستشفاها الذى شيدته يخاطبه :

أى قدس يضم هذا البناء حسدت أرضه عليه السماء
هو من هذه البنيات لكن شرفت بالمقاصد الأشياء
كلما جئته ملمًا تجلت لى من تحت أسه العلياء

وقصيدته « الأرملة المرضعة » أنشدها فى إحدى الحفلات التى أقامتها هذه الجمعية . وآخر ما نظم فيها قصيدة وجهها « إلى حماة الأطفال » يثنى على جليل أعمالهم ويشيد بعميم فضلهم ويقول لهم معتذرًا :

إنى أحاول أن أكون معينكم لولا موانع يعترضن حوالى
لو أن ذات يدى استطاعت رفدكم ما فاق نول الرافدين نوالى
ولو أن أيامى تجود بصحتى ما جال أقوى العاملين مجالى
إن لم أعنكم بالفعال فإننى ما زلت من أعوانكم بمقالى
فإليكمو هذا الثناء مخلَّدًا من مادح فى المدح غير مغالى

وتقيم جمعية إحياء الفن حفلة افتتاح لها فينشد فيها قصيدة يقول فيها :

إن رمت عيشًا ناعمًا ورقيقا فاسلك إليه من الفنون طريقا
واجعل حياتك غضة بالشعر والتمثيل والتصوير والموسيقا
تمضى الحياة طرية فى ظلها والعيش أخضر والزمان أنيقا
تلك الفنون فطر إلى سعة بها إن كنت تشكو فى الحياة الضيقا

ويقيم العمال حفلة لهم فيقف منشدًا قصيدة يحضهم فيها على الاتحاد والتعاضد :

أيها العاملون إن اتحادًا بينكم مرخص لكم كل غال
فليكن بعضكم لبعض نصيرًا ومعينًا له على كل حال
وإذا قلت إنكم أنتم النا س جميعاً فلا أكون المغالى
فاعملوا دائبين غير كسالى وارقبوا ما به ستأتى الليالى
ثم قولوا معى مقالاً رفيع الصـ ـوت : فلتحيى زمرة العمال

عقيدته

عقيدة الرصافى و إيمانه شغلا الناس فى حياته و بعد مماته فاختلفوا فيهما ، ورجموا بالظنون . ولا أدرى علام هذا الخلاف وهما واضحان جليان ؛ فقد كان الرجل صريحاً لا مرائياً ، ومجاهراً لا مكاتماً .

جاء فى وصيته : « أنا — ولله الحمد — مسلم ، مؤمن بالله و برسوله محمد ابن عبد الله إيماناً صادقا لا آرائى فيه ولا أداجى ، إلا أنى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين وليست هى منه إلا بمنزلة القشور من اللباب . ولا يهمنى من الدين إلا جوهره الخالص وغايته المطلوبة ، التى هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية ، والحياة الأخروية ، ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور و بعمل الصالحات . وكلُ ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه وواسطة ليس إلا » .

و إسلامه هذا الذى أثبته فى وصيته مقيّد بقوله فى كتابه « خواطر ونوادر » . « . . . وما أنا — والله شاهد عليم — إلا مسلم لا كهؤلاء المسلمين الذين أراهم وأعرفهم ، و إنما أنا مسلم فحسب لا شيعى ولا سنىّ ولا حنفى ولا شافعى ولا غير ذلك . ثم إنى فى فهم الدين الإسلامى لا أتقيّد من الإسلام إلا بمبدئه الرفيع العام ؛ فلا أكون تابعاً لغيرى فى فهم نصوصه بل أجتهد فى فهمها بقدر ما آتانى الله من فهم وعقل ، فإذا رأيت فيه مالا يناله العقل حاولت تأويله فإن عجزت وقفت عنده متحيراً ليس إلا » .

والمسلم — كما جاء فى كتابه الرسالة العراقية — يجب عليه « أن يكون حراً فى حياته ، حراً فى تفكيره أيضاً . أما كونه حراً فى حياته فإنه بقوله : (لا إله

إلا الله) يتجرد من كل عبودية لغير الله فلا يخضع لسلطان غير سلطان الله ، ولا يقبل حكما إلا لله وحكم الله وسلطانه لا يتجليان له إلا فى الشرع الذى أنزله الله على نبيه محمد ، وفى القانون الذى أجمع عليه المسلمون . لأن إجماع المسلمين منبعث من وحدتهم فهو يحمل روح الإسلام الذى هو دين الوحدة . وأما كونه حراً فى تفكيره فلأمرين :

أحدهما أن الشرع الإسلامى جعل العقل مناط التكليف ، فلا يكلف إلاّ من كان عاقلاً . وليس المراد بالعقل هنا ما يقابل الجنون لأن المجنون غير مكلف فى كل شريعة إلهية كانت أم بشرية . كما أنه ليس المراد بالعقل هنا معناه المتعارف عند الناس ، من إدراك الأمور وفهمها ، بدليل أن الصبيان الذين هم دون بلوغهم سنّ الرشد عقلاء بهذا المعنى ، وهم مع ذلك غير مكلفين فى الشرع . و إنما المراد بالعقل هنا ما يشمل الفكر الذى هو حركة فى العقل ، والذى يتوصل به الإنسان من معلوم إلى مجهول . و بعبارة أخرى : المراد بالعقل هنا هو النظر والاستدلال .

قال علماء الكلام فى كتب العقائد الإسلامية : إن معرفة الله واجبة بالنظر والاستدلال . وقد جعلوا معرفة الله أساساً فى الديانة الإسلامية لكل تكليف وارد فى الشرع . و إذا كانت معرفة الله واجبة بالنظر والاستدلال أى بالتفكير ، كان التفكير واجباً على كل مسلم مكلف فى شرع الإسلام ، ولذا نرى القرآن يدعو إلى التفكير و يأمر به فى كثير من الآيات .

والثانى إن دين الإسلام ليس فيه رياسة دينية لأحد ؛ فلا أحبار فيه ولا قسوس ولا رهبان . فلا يكون المسلم تبعاً لغيره فى معرفة أموره الدينية المتعلقة بحياته اليومية . أى لا يجوز له أن يكون مقلدا لغيره فى تلك الأمور ، بل عليه أن يكون حراً مطلق التفكير فى جميع نصوص الشرع وأدلته ، بحسب اقتداره واجتهاده ، على شرط ألا يخرج به اجتهاده عن الوحدة الإسلامية ، تلك الوحدة التى لا يتقيد تفكيره واجتهاده بشىء غيرها ، والتى لا يدين الله إلا بها .

كان إيمان الرصافى وعقيدته إذن قد شغلا الناس فى حياته ، أما بعد وفاته فإن ذكره إسلامه و إيمانه فى وصيته صار حديث القوم ، وتضاربت فيهما آراؤهم من

جديد . والمطلع على إيمانه وعقيدته لا يرى ما ذكر فى وصيته حولها أمراً غريبا لأنه عاش مسلماً مؤمناً . وهو مؤمن بوحدة الوجود إيماناً ألجأه إليه البحث والتفكير . ويرى أن الإسلام هو الذى جاء بهذه العقيدة كما أذاع فى كتابه (رسائل التعليقات) إذ قال : « إن البحث والتفكير قد ألجآنى إلجاءً لا محيص عنه إلى الإيمان بوحدة الوجود ، وجعلانى أعتقد اعتقاداً جازماً بأن التصوف إسلامى محض فى نشأته وتطوراته ، وأنه فكرة فلسفية مجردة لا علاقة لها بالزهد والعبادة ولا بالزهاد والعباد ، وأن الصوفيين هم فلاسفة الإسلام الذين لا يرون فى الكون باطلا ، والذين تساوت عندهم المعانى المتضادّة . . . وأن طريقتهم الوحيدة فى فلسفتهم هى التفكير المقترن بصفاء النفس . . . . فيكون نقياً خالصاً من شوائب كل غفلة ، ويكون لهم أهدى إلى معرفة الحقيقة الكلية المطلقة اللانهائية . وبعبارة أخرى إلى معرفة الله » .

ويستدل على رأيه بالآيات القرآنية .

الأولى — « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » والثانية — « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » والثالثة — « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » والرابعة — « وهو معكم أينما كنتم » والخامسة — « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » .

ونحن إذا ما خالفناه فى معتقده فعلينا أن نحترم رأيه ، لأنه إيمان هداه إليه اجتهاده ، وأوصله إليه بحثه وتفكيره وكل عقيدة عند من يعتقد بها هى الصحيحة ، وإلا لكان الناس أمة واحدة ، ولما اختلفوا و « كل حزب بما لديهم فرحون »

والرصافى وإن أشار فى شعره إشارة خاطفة إلى عقيدته فى قوله :

سبحان من أوجد الأشياء واحدة وإنما كثرة الأشياء بالصور

فقد أعلنها بصراحة فى قوله :

وإلى الحقيقة تنتهى طرق الضلالة والهدايه
وإذا نظرت الكائنا ت بأسرها فهى السنايه

إنى أرى سرّ الحقيـ ـقة كائناً فى اللانهايه
وأرى الوجود وإن تعدّ ـد واحداً عند الدرايه

وفى قوله :

وما خالق الأكوان إلا مهندس وإن جل عن تعريفه بالمهندس
فأيان جال الطرف لم ير غيره إذا كان فى ألحاظه غير مبلس
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى حقيقته دع عنك حدس المحدِّس
ألا إننى للكائنات موحّـد وإن أرغمت كل المذاهب معطسى

مخالفته المسلمين :

هو مسلم إذن ولكنه يخالف المسلمين فيما يراهم عليه ، من أمور يرونها من الدين وليست هى منه إلا بمنزلة القشور من اللباب . فالقشور إذن كل ما انحرف عن غاية الدين التى أوردت لكم رأيه فيها . فإن المسلم ينشأ ، كما ينشأ غيره ، محاطاً بضروب شتى من العادات والتقاليد الموروثة ، يرى أبناء أمته يرعونها ويقدسونها فيخالها من أصول الدين ولبابه ، ويظن الخروج عليها خروجاً على الدين وكفراً به ، فالرصافى يستنكر هذه البدع ، ويراها ضلالات صرفتهم عن حقيقة الدين وجوهره .

ومن مضحكات الدهر حامل سبحة تقبل جهلاً كفه للتبرّك

ويقول :

فياويل قوم فى العراق قد انطووا على الذل إذا أمست قلوبهم غلفا
ولم يذكروا مجدًا لهم كان ضارباً رواقاً على هام الكواكب قد أوفى
وكانوا به شمّ العرانين فاغتدوا يقاسون أهوالا به تجدع الأنفا
يرجون من أهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدبوس أو يضرب الدفا

وينصحهم بكل رفق ولين :

فيا قومنا إن العلوم تجددت فإن كنتم تهوونها فتجددوا
وخلوا جمود العقل فى أمر دينكم فإن جمود العقل للدين مفسد

وقد أحاط بهذه البدع ، أو بهـذه القشور واستوعبها بقصيدته التى أنشدها فى حفلة المولد النبوى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة وألف للهجرة فقال :

واختلفنا فى الدين حتى افترقنا ... فرقا لا يسيغها المعقـــول
والتزمنا الفروع منـه فضاعت ... بالتزام الفروع منه الأصـول
بدع فى حياتنا منكرات ... غضب الله فوقهـــا مسدول
حالة ساءت الرسـول وساءت ... كل آى بهـا أتانا الرسـول
لو رآنا والشر فينا كثير ... مستفيض والخير نزر قليـل
وثغور الضـــلال مبتسمات ... ووجوه الهـــدى عليها محول
والدعاوى فى الحق منا كبار ... طال فيهـا التزمير والتطبيل
نعبد الله والعبادة لحن ... عند بعض وعنـد بعض عويل
ونحج القبور كالبيت حجاً ... يكثر المسح فيـه والتقبيل
ونعد الركوع للقبر حلا ... وهو فى الدين ماله تحليـل
ونزحى إلى القبـور نذوراً ... فضحايا مســـوقة وحمول
ونقول التوحيـــد قولاً وكل ... هو للشرك عامـــد وفعول
قال مستنكراً لما نحن فيه ... ما بهـذا قد جاءنى جبريل
أين دين التوحيد منكم وأين الأوب لله وحـــده والقفول
أنا حرمت كل ما كان فيـه ... شـــبه للأصنام أو تمثيل
كل من قال منكم إن هـذا ... هو دين الإسـلام فهو جهول
لم لم تحفظوا أخـوة دين ... جاءكم ناطقاً بهـا التنزيل
كان حبل الإخاء فيكم وثيقا ... كيف أمسى وعقده محلول

دفاعه عن الاسلام

وقد وقف فى حياته مواقف مشهورة مدافعاً عن بيضة الإسلام ، مناضلاً دون حماه ، وليس غريباً أن يدافع عن دين يؤمن بسمو تعاليمه وأحكامه ، ويعتقد بنبل مقاصده وغاياته .

تالله ما كان فى الإسلام من حرج على الأنام ولا فى نهجه غمم
بل كله جاء تيسيرا وتبصرة للعاملين وأحكاما بها حكم

تستيقظ الفتنة الأرمنية فى العهد العثمانى ، أو توقظها أيد أجنبية فتسيل دماء من الأرمن ومن المسلمين فيجسم ذوو الأغراض الاستعمارية هذه الفتنة ، ويبالغون فيما أصيب به الأرمن ليظهروا المسلمين بمظهر الهمج المتوحشين ، ويذسبوا ما افتروا عليهم من الهمجية والوحشية إلى الدين الإسلامى . فيغضب الرصافى وينظم قصيدته (أم اليتيم) يذب بها عن حياض دينه . فحين تقول « مريم » لابنها :

أبوك ترامت فيه سفرة راحل إلى الموت لا يرجى له يوم مقدم
مشى أرمنياً فى المعاهد فارتمت به فى مهاوى الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة أنت عن حزازت إلى الدين تنتمى
فقامت بها بين الديار مذابح تخوّض منها الأرمنيون بالدم

يجيبها بكل أدب ولطف :

أمريم مهلا بعض ما تذكرينه فإنك ترمين الفؤاد بأسهم
أمريم إن الله لا شك ناقم من القوم فى قتل النفوس المحرم
أمريم فيما تحكمين تبصرى فإن أنت أدركت الحقيقة فاحكمى
فليس بدين كل ما يفعلونه ولكنه جهل وسوء تفهم
لئن ملئوا الأرض الفضاء جرائماً فهم أجرموا والدين ليس بمجرم

ويجرى ذكر الأديان ، ويحتدم الجدال فيعيب أناس الدين الإسلامى ، ويدعون أنه يحول دون الرقى والتقدم فتثور ثائرة الرصافى ويطلع عليهم بقصيدة :

يقولون فى الإسلام ظلماً بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت أوائله فى عهدها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم فى الإسلام إلا فريضة وهل أمة سادت بغير التعلم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا بصائر أقوام عن المجد نوم
فأشرق نور العلم من حجراته على وجه عصر بالجهالة مظلم
وأطلق أذهان الورى من قيودها فطارت بأفكار على المجد حوم

ويتوسع فى ذكر مآثر الإسلام ومحاسنه ، ويعدد كثيراً منها ثم يقول :

فهل مثل هذا الأمر يالأولى النهى يكون عثاراً فى طريق التقدم
وإن لم يكن هذا إلى المجد سلماً فأى ارتقاء بعد أم أى سلم

ويحذّر المسلمين من أمم الغرب ، ومن مكائدهم ، وأحابيل سياستهم :

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحال تستوجبون احتراما
إنما أنتمو لدى الغرب قوم خلقوا عن سوى الشرور نياما
فإذا ما وسعتم الناس حلماً عدّه الغرب شرّة وعراما
وإذا ما ملأتم الأرض عدلاً عدَّ جوراً ، أو مفخرا عدَّ ذاما
وإذا ما فعلتم الخير يوما حسبوه جناية ، وأثاما
وإذا زلّة لكم دفن الدهر أمّلوا بنبشها الأقلاما
وإذا ما افترى عليكم عدوّ أيّدوه ، وصدقوا الأوهاما
وإذا ما جنى عليكم أناس سكتوا عنهم ، ومروا كراما

وضرب مثلا المصائب التى صبت على المسلمين فى البلقان ، على مرأى ومسمع من أمم الغرب وهى صامتة كأن فى آذانها وقراً .

ما نضا للدفاع عنهم بنو الغر ب حساماً ، ولا أحاروا كلاما

ثم قال :

إن تكن هذه السياسة عدلاً فإلى الظلم نشتكى الآلاما
رحم الله أمة أصبح الغر ب يرى كل ذنبها الإسلاما

نزعته القومية

للرصافى نزعة قومية شديدة جداً ، رسخت فى أعماق نفسه ، وبرزت فى شعره ، فقد وقفنا على شواهد جمة منه تنطق بنزعته هذه وتفصح عنها . فرأيناه يتحرق إذ يرى أمته غارقة فى بحر لجىّ من الجهل ، ويألم إذ يجدها متخلفة عن ركب الأمم المتحضرة ، وسمعناه يهيب بأبناء قومه ، يروم إيقاظهم من سبات الفوه دهراً طويلاً ، ويحثهم على طلب العلم ومجاراة الزمان ، وأصغينا إلى بكائه على مجد أمته الزاهر وعزها الآفل وإليكم الآن أمثلة من شعره الذى ظهرت فيه نزعته القومية بأجلى مظاهرها وأروع معانيها . فقصيدته (سياسة لا حماسة) التى استهلها بوصف تخلص منه إلى قوله :

ومن يكن قال شعراً عن مفاخرة ... فلست والله فى شعر بمفتخر
وإنما هى أنفاس مصعدة ... ترمى بها حسراتى طائر الشرر
وهن إن شئت منى أدمع غزر ... أبكى بهنّ على أيامنا الغرر
أبكى على أمة دار الزمان لها ... قبلاً ودار عليها بعد بالغير
كم خلّد الدهر من أيامهم خبراً ... زان الطروس وليس الخبر كالخبر
لهفى على العرب أمست من جمودهم ... حتى الجمادات تشكو وهى فى ضجر
أين الجحاجح ممن ينتمون إلى ... ذؤابة الشرف الوضاح من مضر

ولما أسس شباب العرب منتداهم الأدبى فى الآستانة أنشدهم يوم افتتاحه قصيدة يذكرهم فيها بمجد أمتهم العتيد ، ويستنهضهم من رقدتهم ، ويحثهم على طلب العلم ليعيشوا أعزة كما عاش أسلافهم ، منها :

هل أتاك الدهر فيما قد أتى ... بحديث العرب فى الأندلس
حيث بالعزم أماطوا العنقا ... وبنور العلم ليل الهوس

فاسألن الغـــرب عما ثبتنا فى ربوع خلفـوها درس
هل ترى ثمـة من لم يجب عن معاليهم ولم يعترف
آه لو يرجع ماضى الحقب آه لو عاد زمان الشرف
سل ربا بغداد عما قد قضى لبنى العباس فى تلك الديار
واسألنّ الشـام عما قد أضا للمعاويين فيها من فخـار
كم ترى المجد سيفا منتضى كم ترى للعلم فيها من منار
عجبى يا قـوم كل العجب هذه الآثار لم لا نقتفى
آه من رقدتنا وا حربى آه من غفلتنا وا أســفى

وما أحسن ما خاطبهم به فيها :

يا بنى يعرب ما هـذا المقام أو ما أسفر صبح النوّم
أين من كان بكم يرعى الذمام ويلبى دعـــوة المهتضم
أفلا يلذعكم منى المـــلام فلقد ألفظ جمراً من فمى
خارجاً فى نفسٍ كاللهب محرقاً مهجـة قلبى الدنف
أنا لولا فيض دمعى السكب لتحرّقت بنـار الأسف

وليست قصيدته (الأمة العربية — ماضيها وباقيها) بالقصيدة المجهولة فى عالم الشعر وهى التى يقول فيها :

والعرب أكبر أمة مشهورة بفتوحها ، وعلومها ، و بيانها
كم قد أقامت للعلوم مدارساً يعيا ذوو الإحصاء عن حسبانها
فالمجـد مأثور بكل صراحة عن قيسها أبداً وعن قحطانها
طبعت على حب العلاء فسعيها المـكرمات يعدّ من ديدانها
يا أمة عاش البرية أعصراً فى عدلها رغداً وفى إحسانها

ولما مثل شباب العرب بالآستانة رواية (وفاء السموءل) أنشدهم قصيدة أحبّ أن يبارى بها قصيدة السموءل جاء فيها :

بكيت على كل ابن أروع ماجد ... له نسب فى الأكرمين جليل
يليح من الضيم المذلّ بغرّة ... لها البدر ترب ، والنجوم قبيل
من العرب أما عرضه فموفّر ... مصون ، وأما جسمه فهزيل
له سلف عزّوا فبزّوا نباهة ... ولم تعتورهم فترة وخمول
وساروا بنهج المكرمات تقلّهم ... قلائص من سعى لهم وخيول
وكانوا إذا ما أظلم الدهر أشرقت ... به غرر من مجدهم وحجول

ثم أرسل أنةً من قلب مكلوم ، وكبد حرّى وأنشدها شباب العرب فى منتداهم الأدبى بالآستانة ، يقرّعهم بها على رضاهم بما هم فيه ، ويستنهضهم بقوله :

فيا قومنا أين المساواة عندكم ... فقد طال عنها فى مواطنكم بحثى
وأين مواثيق الأخوّة إننى ... أرى حبلها فى كل يوم إلى النكث
وإن بصدرى للقريض لفورةً ... يزيد بها من طول غفلتكم نفثى
أراكم فأهجو ، ثم أطرق ذاكراً ... أوائلكم قبلا فأندب أو أرثى
يقولون : إن الإرث فى الخلق سنّة ... فهل بطلت فى خلقكم سنة الإرث ؟

وحينما سقطت وزارة حلمى باشا وخلفتها وزارة حقى باشا ، وكان قد اطلع على سلوك الاتحاديين فى تأليف الوزارات ، انتقدهم انتقاداً صارماً بقصيدة طالب فيها بحقوق العرب ومساواتهم فى سياسة الدولة وإدارتها :

ولم نستفد إلا سقوط وزارة ... وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وما ضرّهم لو أسقطوا نهج سيرهم ... وساروا بمنهاج القبصّر والحذق !
وماذا عسى يجدى سقوط وزارة ... إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق
ولسنا نريد اليوم حكماً عليهم ... ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا ... وبينكم فى الجلّ منه وفى الدق
فإن يفعلوا هذا فيا مرحباً بهم ... وإلا فيا سحق المعاند من سحق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا ... وشيب وشبان على ضمّر بلق

بكل ابن حرب كلما شدّ هزّها بعزم من السيف المهند مشتق
تراه إذا ما عبس الموت وجهه بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق
من العرب مطبوع الطباع على العلا بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق

وعندما ظهرت الفتن بالبلقان ، وخرج السلطان رشاد سائحاً سياحة سياسية نظم قصيدته (عند سياحة السلطان) ذكر فيها الشعوب العثمانية ، التى يعتز بها سلطانهم ذكراً مجرداً إذ قال له :

وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم بصارم لفواصى القوم جزاز
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم والعفو أفضل ما يجزى به الجازى
فاعمد سيوفك إن العفو منصلت واهنأ بشعب محبّ غير منحاز
بالترك ، بالروم ، بالألبان قاطبة ، بالأرمنيين ، بالبلغار ؛ باللاز

ولكنه لما ذكر العرب قال :

أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم إلى مقام على الأقوام ممتاز
إذ هم عماد لعرش أنت ماسكه فاضرب بغاث العدى منهم بأبواز
ورض بهم كل صعب إنهم فئة تبغى الصدور ولا ترضى بأعجاز
إن يعجز الأمر عن شىء فهم سند لو كنت مسنده منهم بعكاز
وإن خشيت على البلدان جنتها فنط بها من نهاهم بعض أحراز
وسيف ملكك إن رثت حمائله أغنوك فى رأبها عن كل خرّاز

ثم قام الإصلاحيون ببيروت يطالبون بالحكم اللامركزى فأيدهم الرصافى ، ودعا العرب إلى الانضمام إليهم ونصحهم بأن يقيموا نهضتهم على دعامتين متينتين من العلم والقوة :

والمجد لا تبنه إلا على أسس من الحديد وإلا فهو منهدم
والعلم أضيع من بذر بمسبخة إن لم تجلّله من نور الظبى ديم
إن الحقيقة قالت لى وقد صدقت لا ينفع العلم إلا فوقه علم

فالعلم ما قارنته البيض مفخرة والحق ما وازرته السمر محترم
والمجد يأثل حيث البأس يدعمه حتى إذا زال زال المجد والكرم

وعرض لذكر الماضين فأثنى على عهودهم المجيدة ، ومكانتهم السامية :

آهاً فآها على ما كان من شرف للبربيين قد ألوى به القدم
أيام كانوا وشمل المجد مجتمع والشعب ملتئم والملك منتظم
كانوا أجل الورى عزاً ومقدرة إذا الخطوب بحبل البغى تحتزم
وأربط الناس جأشاً فى مواقفة من شدة الرعب فيها ترجف اللمم
على الحصافة قد ليثت عمائمهم وبالحزامة منهم شدّت الحزم

إلا أنه انتقض عليهم حين رآهم قد احتموا بفرنسة ، وعقدوا مؤتمرهم بباريس :

قاموا يريدون إصلاحاً فقمت لهم أستنطق الشعر تأهيلا وترحيبا
ورحت أحثهم حدواً بقافية غازلت فى صدرها الآمال تشبيبا

ثم قال :

لو كان فى غير باريز تألبهم ما كنت أحسبهم قوماً منا كيبا
لكن باريز ما زالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتلّ ساحتهم جيش يدك من الشام الأهاضيبا

فخص الإصلاحيين وحدهم باللوم والتأنيب ، ودعا فى قصيدته هذه إلى العروبة المحضة التى لا تفرق بين الأديان

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
عدوا النصارى وعدوا المسلمين بها ونحن نعهدهم طرًّا أعاريبا
أفى مصالح دنياهم وهم عرب جاءوا على حسب الأديان ترتيبا
ما ضرّهم لو نحوا فى الأمر جامعة تنفى الكنائس عنها والمحاريبا

فسلقته صحفهم بألسنة حداد لما وقفوا على هذه القصيدة ، وشنعت به ، ورمته — كما قال — بما هو براء منه وخلاء . فما كان منه إلا أن هجاهم بقصيدته (فى ليلة نابغية) وهو فى هجوه هذا قد استلّهم من جسم الأمة العربية ، و برّأها منهم :

قل للأعاريب قد هانت مكارمكم حتى ادعاها أناس كلّهم نبط
برئت للعرب العرباء من فئةٍ ينمون للعرب إلا أنهم سقط
أين المكارم إن هم أصبحوا عربا فإنها فى طباع العرب تشترط
إن يغمطونى لأنى جئت انهضهم فأىّ مستنهض ذى نجدة غمطوا
الخلق كالخط لا تقرأ لئامهم واشطب عليهم بفعل إنهم غلط

ومن جراء هذه القصيدة وجهت إليه المطاعن ، واتهم بهجوه الأمة العربية ، وانتقاصه شأن العرب وقوميتهم .

ويبدو أن هذه التهمة لم تفل منه شيئا فأعرض عنها ولم يعرها التفاتا . لأنه عندما اتقدت نيران الحرب العالمية الأولى وسمع بأن الإنكليز هاجموا العراق نظم قصيدة قال فيها :

إن صح أن العدوّ اليوم مقترب إلى العراق فقد أكدى وقد أفنا
إن العراق لعمر الله مسبعة توائب الأسد فيه من هنا وهنا
فإن فيه رجالاً من بنى مضر إذا تحارب لا تستشفع الهدنا
تحملوا كل عبء فى حياتهم إلا الصغار وإلّا الضيم والمننا
هم المغاوير إن صالوا بملحمة فلا يرون لهم غير المنون منى

ولما انتهت تلك الحرب بانتصار الإنكليز ، بكى على العراق ، لما حل به من مصائب الاحتلال وكوارثه ، وتوعد المحتل بأخذ الثأر :

ألم تر فى القطر العراقى أمة من الأسر مشدوداً بأعناقها ربق
قد اختط فيه السيف للقوم خطة من العنف لم يمرر بساحتها رفق

ألم ترها قد أصبحت من إسارها تليح بطرف فى لواحظه العتق
سلام على وادى السلام الذى به تفاقم هول الخطب واتسع الخرق
سنفديه حتى لا حياة عزيزة ونبذل حتى لا نفيس ولا علق
وندرك فيه ثأرنا بكتائب لها نسب من صلب يعرب مشتق

ثم ألفت الحكومة العربية بالشام ففاجأ القوم « شكرى غانم » وهو بباريس بمقال تبرأ فيه و برأ اللبنانيين من الأمة العربية ، فنظم الرصافى قصيدة سمى فيها حكومة الشام «صبح الأمانى» ووقف فى مستهلها موقف المستبشر بهذا الصبح المتشكك فيه :

ولو كان صبحاً ناصع اللون سرنى و برّد حراً كان فى كبدى الحرّى
ولكنه صبح يلوح لناظرى بحاشية الزرقاء كالدم محمرا
أراه كوجه الغادة الخود راقنى بحسن ولكن قد تجهم وازورا
لمحت تباشير المنى من خلاله ضئالا كمنهوك غدا يشتكى الضرا
ولم أدر لما استبهمت أخرياته أأطمع أم أستشعر اليأس مضطرا
ولو كنت أدرى ما وراء احراره لسرّى عن النفس الكئيبة ماسرى
ولكنه ورّى عواقب أمره فزادت شكوك النفس من أجل ماورى
يهامسنى بالوعد قولا مجمجما كأنْ هو يخشى أن أذيع له سرا
فإن كنت يا صبح الأمانى صادقاً بوعد فحيا الله طلعتك الغرا

ولما عرض لمقال « شكرى غانم » قال :

لعمرى لقد ساء الكرام ابن غانم بباريس إذ قد قال ما يخجل الحرا
نفى عن مغاميه العروبة وادعى جزافا ، وخلى منهج القوم وابترا
وهل حسبوا أن العروبة فى الورى من العرّ حتى أنكروا ذلك العرا ؟

ولكن . . . تبين أن تهمة هجوه الأمة العربية لم يخب سعير دعايتها وقد عزز هذه الدعاية موقف الشاعر من زعيم الثورة العربية ، فاتخذه أولئك الخصوم سلاحا شهروه فى وجهه ، وظلت نيران هذه التهمة موقدة إلى ما بعد وفاته . وكان

الشاعر عالما بما يقال حوله ويذاع ، فأقضت مضجعه هذه السمعة ، وأورثته ألماً نفسيا محضاً وهو الذى أخلص للأمة العربية ، وأشاد بمفاخر أمجادها ، وعناه أمر إنهاضها من وهدة تردت فيها قرونا :

ركبت بحور الشعر قبلك خائضا ... لعمرك منها كل طام وزاخر
وسيرت من غر القوافى بلجها ... قصائد سارت كالسفين المواخر
بكيت بها المجد المضاع بأدمع ... من الشعر شروى اللؤلؤ المتناثر
ونحت على الماضى الذى كان زاهراً ... مناحة ربات الحجال الحرائر
فلم الف إلا منكرين مكانتى ... يحيدون عنى كالوحوش النوافر

لقد ضاق بهذه القرية ذرعاً ، وله أن يضيق ، فنظم قصيدته (بعد براح الشام) وهو بالقدس عند ما دعى للتدريس بدار المعلمين . وقد استهل القصيدة بوصف ما قاسى من وقع تلكم التهمة حتى بات ليله مسهدا .

كم بت معتلج الهموم بليلة ... ما للظلام بفجرها تقويض
تنبو جنوبك عن فراش ناعم ... فكأن مضجعك الدميث قضيض
وكأن جنبك بالجوى متقرح ... وكأن قلبك بالهموم رضيض

وفى دحضها وغسل عارها عنه يقول :

قد كنت أنبط للقريض قريحة ... بمفاخر العرب الكرام تفيض
ولكم وقفت من السياسة موقفا ... محيای فيه على التوى معروض
مستنهضا بالشعر قومى للعلا ... إذ كان فيهم فترة وربوض
أيام لم ينطق بذلك شاعر ... قبلى ولم ينشد هناك قريض
حتى إذا دار الزمان مداره ... خاب القريض وعاد وهو جريض
وغدا ينازعنى الحرورة شاعر ... ما كان حراً شعره المقروض
ويبزنى ثوب الأمانة خائن ... كأبى براقش طبعه المرفوض
كم مدع دعواى فى وطنية ... أنا كنت أبنيها وكان يقوض

من كل عبد فى السياسة باعه وشراه هـذا الدرهم المقبوض
تعس المخاصم إن لى لقصائداً طرف المعاند دونهن غضيض
فإذا ادعيت فهن فى دعواى لى حجج دوامغ مالهن دحوض
وسل اليراع يجبك عنى ناطقا بمقال صدق ليس فيه غموض
لما تكرهنى الأراذل سرنى أنى إليهم ، يا أميم ، بغيض

ولا بد لى هنا من نظرة ألقيها على موقف الشاعر من زعيم الثورة العربية

لقد مر بنا أن شاعرنا كان يشعر بشعور العثمانى المسلم ، وسمعنا صوته مدويا فى الحروب التى أثيرت على الدولة العثمانية وهاجمها فيها الأعداء ، وهى فى عقر دارها . لذلك فإن موقفه من زعيم الثورة العربية يفسره هذا الشعور الذى غمر الشاعر و إلا فليست له خصومة نحو شخصية الزعيم . ومما استدل به على أنه لم يكن يحمل فى قلبه ضغينة عليه ، موجهة إلى ذاته ، أنه لما توفى وفتح دفتر التعازى فى البلاط الملكى ببغداد كتب فيه هذه الأبيات معزيا بها نجله جلالة الملك فيصل

عزاء أيها الملك المفدى ويا خير الملوك أبا وجدا
لئن عظم المصاب ففيك عزم على الأيام أعظم منه جدا
وما مات الحسين ومنك أبقى أبا غازى لنا ملكا مفدّى
وفى الثاوى لنا عظة وذكرى نجدّ بها على الخلفاء وجدا
فلا نرضى لهم من بعد وعداً ولا نرعى لهم من بعد عهدا

ثم رثاه بقصيدة قال فيها :

بدا وجه العروبة فى حلوك غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى فى المجد ليس بذى نظير وفى العزمات ليس بذى شريك
لقد سلك الطريق إلى المعالى إلى أن مات محمود السلوك
ولكن غشه الخلفاء حتى أتوه من الثعالب فى مسوك

ولما توفى الملك فيصل الأول رثاه بقصيدة قال فيها :

قضى بدر المكارم والمعالى وحيدرة المعارك والمغازى
بنى مجداً عراقياً جديداً فأسسه على المجد الحجازى
وسار من السياسة فى طريق بحسن الرأى معلمة الطراز
فما ترك الجهود بلا نجاح ولا فرصاً تمرّ بلا انتهاز
أبا غازى فقدنا منك قرماً يفاجز دوننا يوم النجاز
لأهل الرافدين عليك حزن له بقلوبهم فضل ارتكاز
فأنت هديتهم سبل المعالى كما جنبتهم طرق المخازى

ولنأخذ الآن فى تصفح شعر الرصافى وغربلته ، لنلتمس فيه الحجج الدوامغ من قصائده ، ونستنطق اليراع الذى وصف مقاله بالصدق والوضوح فنرى بماذا يجيب . ولسهولة التتبع والإحاطة بشعره أقسمه إلى قسمين : الأول ما نظمه قبل قصيدته (بعد براح الشام) والثانى ما نظمه بعدها . فأتلمس فى الأول حججه الدوامغ وجواب يراعه ، وأتحسس فى الثانى الأثر الذى تركه فى نفسه خصومه وافتراؤهم .

إن القصائد التى رويت لكم منها تلكم الشواهد ، هى الحجج الدوامغ التى يقدمها الرصافى بين يدى دعواه ، وهى طائفة مما أجاب به يراعه من سأله واستنطقه ؛ بل هى القصائد التى عناها فى قصيدته (بعد براح الشام) لأنه كان قد نظمها قبل هذه القصيدة .

أما القسم الثانى فأول ما يطالعنا فيه سعيه فى التوفيق بين العرب مسيحييهم ومسلميهم بفلسطين

مواطنكم يا قوم أم كريمة تدر لكم منها مدى العمر ألبان
ففى حضنها مهد لكم ومباءة وفى قلبها عطف عليكم وتحنان
تمتكم إلى المجد المؤثل تغلب كما قد تمتكم للمكارم غسان
فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت تصافحكم فيه نزار وعدنان

أجب أيها الندب المسيحى مسلماً صفا لك منه اليوم سرٌّ وإعلان
فلا تحرما الأوطان أن تتحالفا يدًا بيدٍ حتى تؤكد أيمان
ألا فانهضا نحو العدى وكلاكما لصاحبه فى المأزق الضنك معوان

وينتقد ساسة الغرب ، وينعى عليهم ظلمهم وعسفهم ، ويسخر من مدنيتهم وعلومهم وأخلاقهم .

ولو أنصفنا ساسة الغرب لاغتدت دمشق لها من ساسة الغرب أعوان
ورقت قلوب للعراق وأهله وأصغت إلى شكوى فلسطين آذان
ولكنهم رانت عليهم مطامع فأمسوا وهم صمٌّ عن الحق عميان
لقد قيل : إن الغرب ذو مدنية فقلت : وهل معنى التمدن عدوان ؟
وأى فخار كائن فى تمدن إذا لم يقم فى الغرب للعدل ميزان
إذا كانت الأخلاق غير شريفة فماذا عسى تجدى علوم وعرفان ؟ !

وبعد ما جاء إلى العراق سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وألف أنشد فى حفل مدرسى قصيدته (نحن والماضى) التى يقول فيها :

أجل إن القبائل من معدٍّ علوا فتسنّموا المجد المجيدا
وإن لهاشم فى الدهر مجدًا بناه لها الذى هشم الثريدا

هذا فى الجاهلية ، أما فى الإسلام .

فهم فتحوا البلاد ودوّخوها وقادوا فى معاركها الجنودا
وهم كانوا أشدّ الناس بأساً ، وأمنع جانباً ، وأعم جودا
وأرجحهم لدى الجلّى حلوماً ، وأصلبهم لدى الغمرات عودا
فدعنى والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضاً لهم ورأيننا فعبسن سودا
وقد عهدوا لنا بتراث ملك أضعنا فى رعايته العهودا
وعاشوا سادة فى كل أرضٍ وعشنا فى مواطننا عبيدا

وتؤسس المعهد العلمى فئة من الشباب فينشد فى حفلة افتتاحه قصيدة جاء فيها :

ومعهد علم أسسته عصابة من القوم تسعى للنجاح وتجهد
شباب مشوا للمكرمات بعزمة تقاعس عنها الكوكب المتوقد
سأستودع الأيام كل قصيدة يطيب لهم فيها الثناء المخلّد
أقول لهم قولاً به أستزيدهم وأشكرهم شكراً جزيلاً وأحمد
أما وخلال فيكم عربية وذا قسم ، لو تعلمون ، مؤكد
يسرُّ العلا أن ينهض القوم للعلا وأن يجمع الشبان للعلم معهد

ثم يذهب من العراق مغاضباً فيسكب عواطفه وشعوره ، ويذيب آلامه وشجونه ، ويصوغ منها قصيدة ثائرة يقول فيها :

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنها الليالى فى الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب وادٍ ليس يسقينى
ما كنت أحسب بغداداً تحلّئنى عن ماء دجلتها يوماً وتظمينى
ما ضرنى غير أنى اليوم من عرب لا يغضبون لأمر ليس يرضينى
تالله ما ضاع حقى هكذا أبداً لو كنت من عجم صهب الثعانين

ويطبع كتابه (تمام التعليم والتربية) وأنشودة العرب أول ما يطالعك فيه :

نحن بنى يعرب حرب للحيف لا نطلب العزة إلا بالسيف

وفيه قصيدته التى بكى بها « الحمراء » كما رويتها لكم عند كلامى عن كتابه هذا .

ولما آب إلى العراق وعاد إلى مواقفه فى الإنشاد أنشد ، من ضمن ما أنشد ، قصيدته التى رحب فيها بصديقه الثعالبى الزعيم التونسى فاستهلها بقوله :

أتونس إن فى بغداد قوماً ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد

فنحن على الحقيقة أهل قربى وإن قضت السياسة بالبعاد
أتونس إن مجدك ذو انتماء إلى العليا نزار أو إياد

وتقيم مدرسة التفيض حفلة لوضع الحجر الأساسى لبنائها ، فينشد فيها قصيدة ينتقد بها مناهج المدارس و يختمها بقوله :

فاجمعوا الرأى فيما تعملون به ثم اعملوا بنشاط يذكر المثلا
ثم انهجوا فى بلاد العرب أجمعها نهجاً على وحدة التعليم مشتملا
حتى إذا ما انتدبنا العرب قاطبة كنا كأنا انتدبنا واحداً رجلا

وتمتد يد الاستعمار المجرمة إلى إخواننا السوريين فتصيبهم بالنفوس والأموال ، فيقف فى حفل أقيم ببغداد لجمع الإعانة للمنكوبين ، منشداً قصيدة يصور فيها حواراً بينه و بين طيف دمشق . سأله فأجاب :

أنا البلدة الثكلى دمشق ابنة العلا أما أنت فى مغنى دمشق قطين
ألم تر أبنائى يساقون للردى فمنهم قتيل بالظبى وسجين
فأين أباة الضيم من آل يعرب ألم يأت منهم ناصر ومعين
فقلت لها : لبيك يا أم إنهم سيأتيك منهم بارز وكمين
سندرك فيك الثأر من أنفس العدى ونوقد نار الحرب وهى زبون

وينتقد السياسة التى لم يرضها لبلاده ، و ينظر إلى الماضى بمجده العتيد فيذكره بكل حسرة وألم .

زر ردهة التأريخ إن فناءها المجد من أبناء يعرب متحف
قد كان للعرب الأكارم دولة من بأسها الدول العظيمة ترجف
عاش الأديب منعماً فى ظلها والعالم النحرير والمتفلسف

وأنى إلى مصر فى وفد عراقى فحياها بقصيدة قال فيها :

إذا العروبة حلّت عرش دولتها فمصر تاج لها قد صيغ من ذهب
كم قام للعرب فى أرجائها علم تهفو ذؤابته بالعلم والأدب

قامت بمعترك الأسياف دولتها ... من قبل معترك الأقلام والكتب
من أفق فسطاطها فى الشرق قد طلعت ... شمس إذا غاب قرص الشمس لم تغب
إنى أرى مصر والتأريخ يشهد لى ... تحيا بعرق بها من ضئضىء العرب
وليس فرعونها ممن يشط به ... بعد عن العرب العرباء فى النسب
يمت للعرب ماضيها وحاضرها ... بنسبة غضة فى المجد والحسب

وقد عرض للأوائل فقال :

جاشت كتائبهم كالموج صاخبة ... ترغو بمثل هزيم الرعد فى السحب
تمخضوا من سماع الوحى عن همم ... نالوا بها أنجم الجوزاء من كثب
قد وحدوا الله عن علم فوحدهم ... روحا فخيلوا لأم كلهم وأب
العدل شيمتهم ، والعفو عادتهم ، ... والصبر ديدنهم فى كل محترب

ودعا إلى البدء بتوحيد الثقافة فى بلاد العرب فقال :

ما ضرّ لو نحن وحدنا ثقافتنا ... قبل السياسة بالتعليم والكتب
تلك الجزيرة ترنو نحو وحدتكم ... فى العلم والحكم والإنجاد والطلب
ما أرض مصر ولا أرض العراق لها ... إلا جناحان من عطف ومن حدب
قد استمرّا قروناً من حنانهما ... على الجزيرة فى خفق ومضطرب

وزار العراق وفد من مصر فأنشد فى إحدى الحفلات التى أقيمت له قصيدة منها :

رجال النيل حييتم رجالاً ... بما للعرب فيكم من سمات
بكم طرب الفرات وقال جهراً ... لوادى النيل إنك من لداتى
كلانا جاريان على سهول ... بأبناء العروبة آهلات
كلانا فى الإخاء لنا مواضٍ ... ضمنّ لنا النجاح بكلّ آت
وتجمعنا جوامع كبريات ... وأكبرهن سيدة اللغات

وجاء إلى العراق صديقه « يوسف الحاج » وقد فرغ من كتابه (أم اللغات) فحياه بقصيدة منها :

نزلت فى السهل من أرض العراق على قوم تأصلت فى أعراقهم نسبا
فلست ضيفاً لهم بل رب منزلهم تعدّ فيهم مقيماً لست مغتربا
كذاك كل بلاد العرب ملتجأ لكل من قد غدا للعرب منتسبا
إن الجزيرة كانت قبل (جولتنا) فيما يجاورها أماً لنا وأبا
لكنما فرقتنا بعد (رقدتنا) سياسة من دخيل جاء مغتصبا
واليوم قمنا إلى تجديد (نهضتنا) نغالب الدهر والبقيا لمن غلبا

وتظهر همجية الإنسان فى الحرب العالمية الثانية بأقبح مظاهرها ، ويبرز الجشع الاستعمارى وقد فغر فاه ليبتلع الأمم ، ويزدرد الشعوب ، ومنها الأمة العربية ، لما أودعت الطبيعة أرضها من كنوز مطمورة ، وخيرات مخزونة فتوحى إليه بقصيدة يقول فيها :

معشر العرب أين أنتم من القو م إذا ما تم انقلاب الزمان ! ؟
أنيام والدهر يفتح فيكم من جديديه مقلتى يقظان !
نقض القوم عهدكم قبل هذا واستخفوا بحفظه فى صوان
واستهانوا بالوعد إذ أخلفوه واستغلوا دفائن الأوطان
وأقاموا بها قواعد جوّ لاحتشاد الجنود والطيران
ثم بثوا بها العيون يعيثو ن فسادا فى سوحها والمبانى
ثم ساروا بحكمها سير فلك هم بها آخذون بالسكان
كل هذا وأنتمو مستقلّو ن بدعم من عندهم وامتنان
قيّدوكم لنفعهم بعهود ناطقات من أسركم بلسان
أوثقوكم بها إساراً وقالوا ليس هذا لكم سوى إحسان
أفلا تذكرون من أوليكم أنفاً من مسيسهم بهوان
يوم سادوا والعزّ فيهم يماشى ضربهم بالمشطّب الهندوانى
وتعالت راياتهم خافقات فى جيوش عنا لها الخافقان

هذه هي القصائد التي احتوى عليها القسم الثاني من شعره . وإذا كان القسم الأول قد استأثر بالحجج الدوامغ التي عناها الشاعر ، فقصائد القسم الثاني تفضلها من وجهة الفكرة والاتجاه العربيين ، لكونها تدلّ دلالة صريحة واضحة على أن فكرة العروبة ، كانت إيماناً راسخاً في قرارة نفسه ، وعقيدة متأصلة في أعماق لبه ، لم تقو الدسائس التي حيكت له على أن تستأصل شأفتها ، ولا استطاعت الدعاية ، على إحكامها ، أن تجتث أصولها . ولا عجب فالرصافي عربي الروح ؛ إذا افتخر بشعره قال : « عهدتك شاعر العرب المجيدا » وإذا ذكر العرب دعاهم « قومه » كما مر بنا من الشواهد أو كما قال :

أقول لقومي قول حيران جازع تهيج به أشجانه فيقول
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم فتذهب عنكم غفلة وذهول

وإذا رام أن يلومهم على رضاهم وقناعتهم بما هم فيه جاشت غوارب عبرته فقال:

ألا فاذكروا يا قوم أربع مجدكم فقد درست إلاّ بقية أطلال
رمى الدهر قومي بالخمول فلمتهم وأوسعتهم عذلا فلم يجد تعذالي

وإذا رآهم محكومين هاجت حفيظته ، واحتدم غيظه فلم ير بداً من أن يذم الدهر على سوء فعله ، ويعنفه على جنايته فيقول :

أرى الدهر كالميزان يصعد بالحصى ويهبط بالموزون ذي الثمن المربي
أدال من العرب الأعاجم بعدما أدال بني عباسها من بني حرب
ولم أر للأيام أشنع سبّة لعمرك من ملك العلوج على العرب

بهذه الحجج والبراهين أثبت الشاعر براءته من معرّة تهمة ألصقت به زوراً وبهتاناً ، فخرج منها موفور الكرامة ، واضح المحيا ، ناصع الجبين .

خاتمة

هذا ما أمكننى تقديمه من البحث فى حياة الرصافى ، ومؤلفاته ، وآرائه ، وأغراض شعره وإن كان بحثاً موجزاً مقتضبا . وهو ، على إيجازه واقتضابه ، كفيل بأن يقرّب إلى الأفهام شخصية هذا الشاعر ، ويعرّفكم بأدبه معرفة صادقة وإن لم تكن مستفيضة شاملة . وأنا أرجو أن تساعف الأيام فأوفق لإكمال ما بدأت به ، فأجلو له صورة إن لم تكن كاملة فإنها أقرب إلى الكمال .

وأخيراً . . . أودعكم بأبيات من قصيدة ودع بها شاعرنا « بيروت » من قبل فقال :

وداعاً وداعاً أيها القوم إننى ... مفارقكم لا عن صدود ولا هجر
لئن أزف الترحال عنكم فإن بى ... إليكم لأشواقاً أحرّ من الجمر
أحبكم قلبى اعترافاً بفضلكم ... وأنكر فى يوم النوى حكمة الصبر
ولا غرو أن أكرمتم الضيف شيمة ... توارثتموها عن جدود لكم غر
ألستم من العرب الألى طار صيتهم ... إلى حيث يبقى تحته طائر النسر
أعاريب نهاضون فى طلب العلا ... غطاريف سباقون فى حلبة الفخر
سأذكركم ذكر المحب حبيبه ... وأشكركم شكر الجدوب ندى القطر

ذيـــل

ببعض الاناشيد والاغانى

المدرسية التى نظمها فى العراق

نشـــيد العلم

يا عـلم الأمة إنا معك حتم علينا لك أن نتبعك
مرنا بما شئت فتأريخنا يكفل منا لك أن نسمعك

* * *

وسر إلى ما رمت من سؤدد فالواجب الأقدس ان نتبعك
فيك شيات أربع لم تزل توضح للناس بها منزعك

* * *

تعترف الناس لنا بالعلى إذا رأت أعينهم اربعك
هن رموز لعصور مضت بالعزّ للشعب الذى أبدعك

* * *

يا علم العرب وسعت العلى ما أضيق الدهر وما اوسعك
اودعك الخالق تأريخنا فاخفق على الأرض بما أودعك

العـــلم والسيف

ما العلم والسيف عند قومى إلا طريقان للتعـــالى
لم تبتن العرب بيت مجد إلا على العـلم والعوالى

* * *

قد مرّ للعرب عصر عزّ يعد من أشرف العصور
فمجـــدنا خالد قديم باق إلى آخر الدهـور

* * *

أنفسنا حـــرّة رفيعة تصبو إلى الصورة البديعة
تزيدنا فى العلى نشـــاطاً محاسن الـكون والطبيعة

نشـــيد الرياضة

قد علمت كلّ الـــبرايا بأننـــا نأبى الدنايا
شـــعارنا بين الأنام تقـــدم للأمام
نحن الأولى عزاً ومجدا فاقوا الورى قبلاً وبعدا

نشـــيد الاستنهاض

يا قومنا قوموا إلى كسب المعالى والعلى
وابنوا لنا المجد على أساس مجـد غابر

***

إن شئتمو عزّ الوطن فاسعوا إلى العلم اذن
فالعلم فى هذا الزمن للمـرء اقوى ناصر

***

علم الأوالى والأدب لم يحيه إلا العـرب
فالعـلم لولاهم ذهب ذهاب أمس الدابر

***

إنا خلقنـــا للولا لا للتعـادى والقلى
اذ نحن أبناء الأولى سادوا على الحواضر

***

كم أشرقت منا نجوم فى كل آفاق العلوم
تهدى بها أهل الفهوم إلى ذرى المفـاخر

***

كم قد كشفنا غمة وكم فرجنـا أزمة
إذ نحن أمضى عزمة من الحسـام الباتر

نشـيد الوطن

يا وطن العرب ألا أبشر بنيـل المنى
إن لم نذد عنك العـدى فلا بلغنـا العـلى

* * *

يا وطن العـرب الذى نهواه ملء الحشـا
إن مسك الدهر بمـا يؤذى فنحن الفدى

* * *

نحن الأولى قد بلغوا بالعـلم أعلى الذرى
أقلامنا قد أوضحت للنـاس نهج الهدى

* * *

نحن الأولى قد فتحوا الأمصـار فيما مضى
أيامنـــا مشهورة عنـد جميع الورى

* * *

نحن الأولى قد أخضعوا بالسيف كلّ العدى
أعلامنا خفـــاقة بالنصر يوم الوغى

* * *

صيحتنا يوم الوغى تصـدع صم الصفا
وعزمنا عنـد اللقا يفـل بيض الظبى

المعمـــار

لى قطع من خشب ألهو بهـا فى اللعب
ابنى لكم داراً بهـا حاوية كلّ البهـا

***

أصـــفها فتنتظم ثم جميعاً تنهـدم
فاعترفوا لى بالفطن ألست معماراً اذن

***

فانظر لمـا أؤسس انى أنا المهنـدس
جميع أهـل حارتى تعجبهم مهـارتى

لعبـة الأزهار

ما احلاها من أزهار طيبـة فايحـة
إذا فاتتهـا الأنظار تعرف بالرايحـة

***

هلمى يا زهـرتى وانشقينى الطيبـا
لأضحى فى لعبـتى غالبـاً لا مغـلوبا

فلنلعـب

فلنلعب فلنلعب ونغنى الأغانى
ولنرقص ولنطرب بـلا توانى

***

فلننصب القامات ولنسرع الخطوات
ولنمشِ للأمام طـــرا بنظام

نشـــيد الشمس

الولد : يا شمس أين تذهبى فى الليل بعد المغرب ؟
فهـل تنامين كما أنام فى الليـل أنا ؟

* * *

الشمس : كلا ، فإنى لم أنم لـكننى من القـدم
مثل السراج أشتعل وفى السماء أنتقـل

* * *

الولد : وأين أنت عنـدما يمسى الهواء مظلما ؟
هل لك غير أرضنا أرض تضيئين بها ؟

* * *

الشمس : إذا غربت عندكم طلعت عنـد غيركم
إن المسـاء ههنا هنـاك صبحٌ وسنا

الفهرس

حياته ... ... ١ — ٨

مؤلفـــاته ... ... ٩ — ٢٩

الرؤيا ١٠

الأناشيد المدرسية ، تمائم التعليم والتربية ١١

دفع الهجنة فى ارتضاخ اللـكنة ١٥

نفخ الطيب فى الخطابة والخطيب ١٦

دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ، رسائل التعليقات ١٧

على باب سجن أبى العلاء ٢٢

عالم الذباب ، الديوان ٢٣

الأدب الرفيع فى ميزان الشعر ، خواطر ونوادر ، الرسالة العراقية ٢٤

آراء أبى العلاء ٢٥

كتاب الآلة والأداة ٢٦

دفع المراق فى كلام أهل العراق ، الشخصية المحمدية أوحل اللغز المقدس ... ٢٧

آراؤه فى الأدب واللغة ... ... ٣٠ — ٣٣

الوزن والشعر المنثور ، جمود اللغة ٣٠

الاشتقاق ، التعريب ٣١

رأيه فى المعجمات ٣٢

فن القراءة ، اللغة العامية ٣٣

ثورات الرأى ... ... ٣٤ — ٣٧

شعره ... ... ٣٨ — ٤٧

أغراض شعره ٣٩

مشاهد البؤس ٤٠

الفقر والسقام ٤١

فى غمار السياسة ... ... ٤٨ — ٦٧

فى الحياة النيابية ، المعاهدة ٦٠

حرية الصحافة ٦٣

الدعوة إلى السلام ٦٤

استنهاض الأمة ... ... ٦٨ — ٧٣

المرأة ... ... ٧٤ — ٨٠

حريته ... . ٨١ — ٨٣
بكاؤه على العراق ... ... ٨٤ — ٨٧
الوصف ... ... ٨٨ — ٩٨
وصف المخترعات العلمية ٨٨
وصف الصمت، وصف البحر والقمر ٩٠
وصف الغـروب ٩١
وصف روضة ٩٢
وصف حريق ٩٣
بنـات الفن وأوصافهن ٩٥
العـلوم التى طرق أبوابها ... ... ٩٩ — ١٠٥
تشجيعه المشروعات المفيدة ... ... ١٠٦ — ١٠٨
عقيـدته ... ... ١٠٩ — ١١٣
مخالفته المسلمين ١١٢
دفاعه عن الإسلام ... ... ١١٤ — ١١٥
نزعته القومية ... ... ١١٦ — ١٣١
خاتمـــة ١٣٢
ذيل ببعض الأناشيد والأغانى المدرسية التى نظمها فى العراق ... ... ١٣٣ — ١٣٨
نشيد العلم ، العـلم والسيف ١٣٤
نشيد الرياضة ، نشيد الاستنهاض ١٣٥
نشـيد الوطن ١٣٦
المعمار ، لعبة الأزهار ، فلنلعب ١٣٧
نشيد الشـمس ١٣٨
الفهرس ١٣٩

دار مصر للطباعة
١٠ شارع محمد فهمي السنوسي (الفجالة)

893.7R18
DA

BOUND

NOV 26 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58877630
893.7R18 DA
Muhadarat an Maruf a